بان تشن شان هو دونغ تسى فى هذه القصة ، وهو ابن لمقاتل ثورى انضم مع الجيش الاحمر الى المسيرة الكبرى عام ١٩٣٤ . وقد ترك فى القرية مع امه التى استشهدت فيما بعد . لقد عاهد دونغ تسى نفسه على الثأر . وبفضل مساعدة الشعب ومنظمات الحزب ، استطاع ان ينجو من مخالب اعدائه الطبقيين مرات عديدة ، فكافح وتغلب على كثير من الشدائد و الصعوبات ، ثم ترعرع من صبى فى السابعة من عمره ليصبح مقاتلا فى جيش التحرير .

النجمة الحمراء المتلألئة

قصة بقلم : لى شين تيان رسوم بريشة : وانغ وى شين

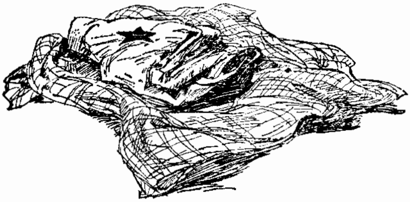

دار النشر باللغات الاجنبية

بكين ١٩٧٦

طبع فى جمهورية الصين الشعبية

مكتبة ماو تسي تونغ للعرب
https://sites.google.com/site/maoforarab

نسخه للأنترنيت بواسطة الماسح الضوئي : الصوت الشيوعي
https://sites.google.com/site/communistvoice
communistvoice@yahoo.com

١

ولدت فى قرية ليوشى ، قرية جبلية فى مقاطعة جيانغشى . وقد اسمانى والداى دونغ تسى . وفى عام ١٩٣٢ عندما كنت فى الخامسة من عمرى سمعت الكبار يقولون بأنهم يقومون بالثورة . وكان والدى بان شينغ يى احد من يقومون بالثورة وكان قائد فصيلة كذلك . ولما كنت صغير السن ، لم اعرف معنى القيام بالثورة . وفى يوم من الايام قاد والدى مجموعة من الرجال المسلحين بالسيوف العريضة والرماح ذات الشراريب الحمراء الى منزل هو هان سان ، الطاغية المحلى الذى داس بقدميه سكان قريتنا . فجروا مالك الارض الملعون هذا من بيته واوثقوه بالحبال وطافوا به فى ارجاء القرية بعد ان البسوه طرطورا طويلا من الورق . وسمعت فيما بعد انهم قسموا اراضى المالك هو هان سان بيننا نحن الفقراء حتى يكون لنا ما يخصنا من الاراضى لنزرعها وما

يكفينا من الطعام لنشبع به . وقد ادركت مما فعلوه ان القيام بالثورة معناه اعطاء الاراضى للفقراء والباس ملاك الاراضى الطراطير الطويلة والطواف بهم فى موكب عبر القرية .

كان والدى فلاحا عاديا . وقد كان الاخ وو هو الذى ارشده الى القيام بالثورة .

اسم الاخ وو الكامل وو شيو تشو . كان يشتغل معلما فى مدرسة بقرية جينغشان المجاورة ، الا انه كان يسكن فى منزل بجوارنا . وعند الظهيرة ذات يوم حينما كنت اجلس القرفصاء فى ظل شجرة فى طرف الحقل اراقب والدى يحرث الارض جاء الاخ وو . وعندما شاهد والدى يتصبب عرقا وهو يدفع المحراث ناداه قائلا :

ـ استرح قليلا يا عم شينغ يى !

ـ لا استطيع . لقد استعرت هذا الثور ولا بد من ان انتهى من حراثة هذا الحقل قبل موعد الغداء .

وانحنى والدى مرة اخرى على المحراث .

حثه الاخ وو قائلا :

ـ توقف دقيقة واحدة يا عم . فعندى ما اخبرك به .

توقف والدى عن الحرث وسار اليه سائلا :

ـ نعم ، ماذا فى الامر ؟

ـ لقد افتتحنا حديثا مدرسة ليلية للفلاحين فى جينغشان ، وعليك ان تذهب لكى تدرس هناك .

ـ ماذا ؟ ادرس ؟ انا ؟ لا ، لا !

ارتد على عقبيه فورا واتجه الى المحراث قائلا :

ـ انا لا اقدر حتى على اطعام اولادى فكيف اذهب اذن الى المدرسة ؟

تقدم الاخ وو من والدى وامسك بذراعه قائلا :

ـ هذه ليست مدرسة تذهب اليها لتتعلم القراءة فقط . سوف نستمع الى الاحداث الجارية ايضا . فلماذا لا تذهب ؟ هناك كثير من الاشياء المفيدة نتعلمها نحن الفلاحين .

بعد ان سمع والدى هذا القول توقف وسأل فى اهتمام شديد :

ـ هل يمكن ان نتعلم كيف نضع حدا لشقائنا ؟

ـ هذه هى مهمة المدرسة .

قلب الاخ وو يديه واضاف :

ـ أنها تساعد الفلاحين والعمال لينهضوا ويغيروا ملامح العالم .

استقام والدى فى وقفته ومسح العرق عن جبهته قائلا :

ـ لقد حان الوقت لكى نحدث تغييرا .

ثم واصل حديثه بلهجة ساخطة :

ـ نحن نفلح الارض الا اننا لا نملك ثيرانا تجر المحاريث ولا وسائل نصلح بها بيوتنا . ففى كل سنة قبل حلول مايو تكون المحاصيل الخضراء فى الحقول قد رهنت عند مالك الارض . لا يمكن ان تسير الامور بهذه الصورة الى الأبد .

قال الاخ وو موافقا :

ـ هذا صحيح ! ان الرفيق ماو تسيتونغ قد ارسل شخصا الى هنا . وعلينا ان نقتدى بالناس الذين يسكنون فى الجانب الجنوبى من الجبل فى اسقاط الطغاة المحليين وتقسيم الاراضى . ويستحسن

ان تذهب الى المدرسة هذا المساء .

ولدى ذكر اسم ماو تسيتونغ ظهرت علامات الفرح على وجه والدى وقال مؤكدا :

– حسنا ، سأذهب هذا المساء .

ثم عاد الى محراثه .

فى المساء ذهب والدى والاخ وو الى المدرسة الليلية معا . وبعد ذلك ظل والدى يذهب كل مساء . ولم يمض وقت طويل حتى تعلم الكثير عن الثورة واستطاع ان يشرحها للآخرين ، كما تعلم كيف يستخدم السيف العريض ويطلق النار من البندقية . وبعد ان مضى وقت قصير على ذلك نظم فصيلة للحرس الاحمر فى قريتنا واختير قائدا لها . وهكذا قاد الفلاحين الفقراء للاطاحة بالطغاة المحليين وتقسيم الاراضى .

وبعد ان اصبح والدى قائدا لفصيلة الحرس الاحمر ، تغير كثيرا وصار شخصا آخر . اما امى فلم تفارق البسمة شفتيها وكانت مسرورة فى مد يد المساعدة لوالدى بكل الطرق الممكنة ، وبدت مشغولة للغاية . وكنت اريد دائما ان اصحبها فى مهماتها التى اوكلت اليها ، ولكنها كانت تقول احيانا :

– انت تلتصق بى التصاق الظل . اذهب وابحث عن تشون يا تسى فى البيت المجاور !

تشون يا تسى كان ابن شقيق وو شيو تشو ، وهو فى عمرى ودائما ما كنا نلعب معا .

وذات يوم عندما كانت امى خارج البيت تقوم بتنظيم بعض النسوة

ليصنعن الاحذية للجيش ، ذهبت لالعب مع تشون يا تسى . وبدأنا نغنى الاغنية التى تعلمناها من الكبار :

تشرق الشمس حمراء ساطعة ،
لقد حضر الرفيق ماو تسيتونغ
الى جبال جينغقانغ ،
ليقود العمال والفلاحين فى القيام بالثورة .
لقد نهض الشغيلة الفقراء على اقدامهم .
فليسقط الطغاة !
ولنقتسم الاراضى !
فاليوم تبتسم كل الوجوه .

ذكرتنى هذه الاغنية بالمالك هو هان سان الذى طافت به الجماهير وعلى رأسه طرطور عال من الورق . فقلت لتشون يا تسى :

ـ تمثل نفسك طاغية محليا ، وانا اكتفك واطوف بك فى ارجاء القرية .

رد تشون يا تسى :

ـ لا ، لأكتفك انا واطوف بك .

ولكننى اصررت قائلا :

ـ كلا ، كن انت طاغية ، وسوف ابحث عن الحبل .

جريت الى بيتى واخذت قطعة من الحبل وامسكت بذراع صديقى .

قال تشون يا تسى محتجا :

ـ كلا ، لن اكون طاغية !

ثم امسك بطرف الحبل محاولا ان يكتفنى به . عندها دفعته

دفعة قوية اسقطته على الارض . فانفجر باكيا وجرى الى بيته مناديا " اماه ! "

كان هذا خطأ من جانبى وعرفت ذلك . فكثيرا ما اخبرنى والدى بألا اظلم الاطفال الآخرين . وفى تلك اللحظة جاء ابى وحمل تشون يا تسى وكفكف دمعه وسأله عن الامر . اجاب تشون يا تسى قائلا :

– لقد طلب منى ان اكون طاغية ورفضت .

فضحك والدى وسأله :

– لماذا ترفض ان تكون طاغية ؟

– ان الطغاة اناس رديئون .

ورد والدى ضاحكا :

– صحيح تماما ، ان الطغاة سيئون .

عندئذ اقبل الاخ وو وعلى وجهه علامات الجد ، وقال مخاطبا والدى :

– هرب هو هان سان من قبضتنا .

سأل والدى وهو يفتح عينيه على وسعهما :

– هرب ؟

ثم انزل تشون يا تسى على الارض واخرج مسدس الماوزر سائلا :

– اين ذهب ؟ دعنى الاحق هذا الخنزير واحضره !

ولكن الاخ وو هز رأسه نفيا وقال :

– تسلل هاربا فى الليل بالتأكيد ، وقد يكون فى حاضرة المحافظة الآن .

ضرب والدى الارض بقدمه غاضبا وقال :

ــ انه هارب . فلا بد من ان يضر بنا فيما بعد .

قد فهمت بشكل عام ما قصده والدى ، اذ عرفت من الكبار ان مالك الارض هو اسوأ طاغية محلى يملك عدة مئات مو من الاراضى ، وما يخزنه من الحبوب فى بيته يكفيه لاعالة اسرته عشرات السنين وكله مبتز من الفقراء . وكان له ابن فى الحرس الابيض . ليتهم اعدموه بالرصاص فى اليوم نفسه الذى طافوا به . فكيف تركوه يفر ؟

اعترف الاخ وو قائلا :

ــ كنا مهملين فتركنا الذئب يهرب !

شد والدى مغلاق مسدسه وقال :

ــ سألاحقه حيثما يذهب واعود به !

وتحرك سائرا . فامسك الاخ وو بذراعه وقال :

ــ ليس هنالك وقت لهذا . ان الحرس الابيض يهاجم بنغقانغ . وقد طلبت القيادة العليا من حرسنا الاحمر ان يقيد حركات العدو عند قويشى .

وناول والدى الامر المكتوب . فقال والدى بعد ان قرأ الامر :

ــ حسنا جدا ، سوف ننطلق حالا .

ثم اتجه مباشرة نحو مقر قيادة الحرس الاحمر .

استطعنا ان نسمع فى قريتنا صوت الطلقات من بنغقانغ . وكلما سمعت صوت طلقة سألت امى :

ــ هل اطلق ابى هذه الطلقة ؟

كانت امى تشير برأسها مجيبة : " نعم . " وكنت اشعر بسرور عظيم قائلا لنفسى : من المؤكد ان والدى قد قتل عددا كبيرا من

الحرس الابيض .

كانت امى مشغولة فى اليومين الأخيرين بوجه خاص ، اذ كانت تعمل مع نساء القرية على تمريض الجرحى من رجال الجيش الاحمر المحمولين من الجبهة ، فتقدم لهم الطعام وترعاهم ولا تعود الى البيت فى الليل .

وفى صباح اليوم الثالث ، بينما كنت مع امى نتناول الفطور ، دخلت العمة وو الثالثة وهمست شيئا فى اذن امى . فسرعان ما وضعت امى طاستها واتجهت الى الخارج . اما انا فقد سرت وراءها حتى دخلنا فناء دار مالك الارض هو ثم الى الجناح الشرقى من البيت الكبير . كان والدى مستلقيا هناك على باب مخلوع يستخدم كسرير مؤقت . وعندما رآنا نهض جالسا . وبدا نحيفا جدا وشاحب اللون .

سألته امى بقلق :

ــ هل منيت باصابة بليغة ؟

ــ انها اصابة طفيفة . رصاصة فى ساقى اليسرى .

وانقلب ناقلا ساقه المجروحة . وعندها شاهدت رجل بنطاله الملطخة بالدم فانفجرت باكيا .

قال والدى معنفا :

ــ ما الذى يبكيك ؟

لقد حاولت السكوت ولكن لم استطع اليه سبيلا . فالتصقت بأمى كاتما نشيجى . وبينما جعلت امى ترفع بلطف رجل بنطال والدى ، رأيت الضماد الملفوف على ساقه مضرجا بالدم ايضا . حينذاك حضر طبيب من الجيش الاحمر وساعد امى على ازالة الضماد حتى يفحص

الجرح . فقال :

– لا بد ان نخرج الرصاصة ، يا قائد الفصيلة بان !

اجاب والدى مبتسما :

– نعم ، افعل ذلك . لا فائدة من وجودها فى ساقى .

نظف الطبيب الجرح استعدادا لاخراج الرصاصة . وفى هذه اللحظة حمل رجل جريح آخر الى الغرفة المجاورة . ولما سمع الطبيب الجريح يئن من الالم ذهب ليلقى نظرة عليه . وعندما عاد سأله والدى عما حدث ، فأخبره بأن احد الرفاق قد جرح ، وينبغى ان تجرى له عملية جراحية . وسأله والدى :

– ألا يمكن ان تحقنه بالمخدر لايقاف الالم ؟

هز الطبيب رأسه قائلا :

– بقيت لدينا انبولة واحدة .

وامسك الطبيب بهذه الانبولة متهيئا لحقن والدى . فأوقفه والدى قائلا :

– ان جرحى خدش ليس الا ، ولا احتاج اليها . اعطه اياها فى الحال .

ترامى الى مسمعنا من الغرفة المجاورة انين آخر جعل الطبيب يتردد وقال :

– ولكن عمليتك ستأخذ زمنا اطول يا قائد الفصيلة بان . انت بحاجة الى التخدير اكثر منه .

قاطعه والدى وقال رابتا على صدره :

– اننى قوى جدا ، وبوسعى ان اتحمل مهما استغرقت العملية

من الوقت . احقنه بسرعة !

القى الطبيب نظرة على امى التى لم تنبس بحرف وادارت وجهها الى الناحية الاخرى . فقال والدى لامى :

– اطلبى من الطبيب ان يحقنه .

ونظرت امى الى والدى واومأت للطبيب موافقة :

– احقن ذلك الرفيق .

وهكذا حقن الرجل الجريح فى الغرفة المجاورة ولم يلبث ان كف عن الانين . وعندما عاد الطبيب قال والدى لامى :

– خذى دونغ تسى الى الخارج .

قادتنى امى الى تحت شجرة خرنوب فى فناء الدار واخبرتنى بأن امكث هناك بينما اسرعت هى الى الداخل . ولم اجرؤ على مخالفة امرها ، الا اننى اردت ان القى نظرة . ولهذا تسللت راجعا الى الباب الذى لم يكن مقفولا بل كان مواربا . فشاهدت الطبيب يعمل على اخراج الرصاصة من ساق والدى . كان الدم يقطر من الجرح وحبات عرق كبيرة تتدحرج على وجه والدى . كانت اسنانه مطبقة وهو يتنفس بصعوبة ، غير انه لازم الصمت . كدت ابكى لولا نظرة والدى التى القاها الى حينئذ لمنع بكائى . ثم اشار مناديا لى . وبينما كنت اتقدم على اطراف قدمى سمعت رنة احدثها سقوط قطعة معدن فى صحن خزفى . فسأل والدى ضاحكا :

– هل اخرجتها ؟

– نعم ، اخرجت !

وشد الطبيب على يد والدى قائلا :

ـ انك صلب العود حقا ، يا قائد الفصيلة بان . لم تدمدم ولم تختلج فيك عضلة ولو مرة واحدة .

قال والدى :

ـ اعطنى تلك الرصاصة .

فالتقط الطبيب الرصاصة لمسحها . فقال والدى :

ـ لا تنظفها ! اننى اريدها بالدم !

وهكذا وضع الطبيب الرصاصة الملطخة بالدم فى راحة يد والدى وضمد جرحه ثم غادر الغرفة .

طلب والدى من امى ان تضعنى الى جانبه . ثم وضع الرصاصة فى باطن كفى وسألنى :

ـ أ تعرف يا بنى من اين جاءت هذه الرصاصة ؟

ـ من بنادق الحرس الابيض .

نظر والدى الى الرصاصة ثم نظر الى وقال :

ـ لقد سفك الحرس الابيض كثيرا من دمائنا . فماذا نفعل ؟

ـ نحمل البنادق ونعاملهم بالمثل .

قال والدى وهو يربت على رأسى :

ـ صحيح ! تذكر هذا الى الابد ، واذا كان الحرس الابيض باقيا عندما تكبر ، عليك ان تواصل قتالهم !

امسكت الرصاصة بعناية ناحتا قوله على ذاكرتى . ثم سألت :

ـ ألم تشعر بالالم يا ابى عندما اخرج الطبيب الرصاصة ؟

ـ طبعا كان ذلك مؤلما .

ـ اذن لماذا لم تتأوه ؟

ـ اذا تأوهت آلمنى ذلك بنفس القدر ، بيد اننى امتنعت عن التأوه وزال عنى الالم .

قلت لنفسى ان هذا شئ عجيب : اذا لم يخف الانسان من الالم فسوف يزول الالم ! هل الامر حقيقة هكذا ؟ وخشية من ان ازعج والدى كثيرا امرتنى والدتى :

ـ لا تسأل اسئلة كثيرة . اترك والدك يستريح !

ثم قادتنى الى الخارج .

بعد فترة قصيرة من النقاهة اصبح والدى قادرا على التحرك مرة اخرى . وحضر الاخ وو ومعه مهمة موكولة الى والدى . كان من المقرر ان يترك الجيش الاحمر القواعد الثورية وكان لا بد لوالدى ان

ينضم الى القوة الرئيسية للجيش الاحمر ليذهب معها الى القتال (١) .

بدت والدتى مشغولة اكثر من قبل . فقد كانت تجلس كل مساء تصنع الاحذية . وقد صنعت ثلاثة ازواج ، وكنت مندهشا اسأل نفسى لماذا تصنع كل هذه الاحذية .

ذات ليلة صحوت على صوت والدى يتحدثان . كان والدى غائبا عن المنزل منذ ليال ، فما الذى جعله يعود هذه الليلة ؟ سمعت امى تسأل :

— كم سيطول غيابك هذه المرة ؟ متى ستعود ؟

— لن اعود الا بعد ان نلحق الهزيمة بالغزاة اليابانيين .

— دعنى انا ودونغ تسى نصاحبك . فبوسعى ان اؤدى بعض الاعمال ايضا .

— هذا مستحيل . انها حملة طويلة يقوم بها الجيش النظامى ،

---

(١) يقصد هنا بالمسيرة الكبرى لمسافة ٢٥٫٠٠٠ لى (١٢٫٥٠٠ كم) .

فى اكتوبر ١٩٣٣ شن تشانغ كاى شيك بمليون من قواته حملة " التطويق والابادة " الخامسة المعادية للثورة ضد مناطق القواعد الحمراء . ومن جراء القيادة الخاطئة لخط وانغ مينغ الانتهازى " اليسارى " الذى خالف خط الرئيس ماو السياسى والعسكرى الصحيح ، فشلت اخيرا الحملة المضادة لحملة " التطويق والابادة " الخامسة والتى قام بها الجيش الاحمر ببسالة واستمرت سنة . ففى اكتوبر ١٩٣٤ جلا الجيش الاحمر عن مناطق القواعد الثورية وقام بالانتقال الكبير الاستراتيجى ، فبدأت المسيرة الكبرى المشهورة على نطاق العالم .

يسير ويقاتل كل يوم .

– عندما يكون الجيش الاحمر معنا يكون بالنا مرتاحا . وبعد ان تغادروا لا يعرف الناس الى من يتجهون .

– الجيش الاحمر يذهب ولكن الحزب باق . وبوسعكم ان تواصلوا الثورة .

وبعد هنيهة واصل ابى :

– بالطبع مع تغير الوضع لا بد ان تتخذ الثورة شكلا آخر .

وبعد هنيهة اخرى استمر قائلا :

– لقد تحدثت مع وو شيو تشو حول انضمامك الى الحزب . وهو على استعداد لتزكيتك .

– أ لا يغادرنا هو ؟

– كلا . سوف يتقلد مسؤولية قيادة العمل الحزبى هنا .

– ما دام الحزب باقيا هنا فسوف نعرف ممن نطلب التوجيه والارشاد .

وحذر والدى قائلا :

– بعد ان يتجه الجيش الاحمر شمالا سيصبح النضال هنا اكثر صعوبة ومشقة واكثر مرارة ، فينبغى ان تكونى اشد حزما وصلابة .

فاجابت امى :

– بمقدورى ان اتحمل ذلك . لقد مضى عام حتى الآن ، اننى اتوق للانضمام الى الحزب ، ولكننى اعرف اننى لست فى المستوى المطلوب .

ولكن والدى قال لها بحزم :

– لكى تكونى عضوة فى الحزب لا بد ان تطالبى نفسك بأشياء كثيرة . وحالما تنضمين الى الحزب تصبحين مناضلة فى طليعة البروليتاريا .

وعدت امى بصوت مهتز بالعاطفة :

– سوف افعل كل ما يطلبه منى الحزب .

– ثم هناك دونغ تسى . وقد تمضى سنوات قبل ان اراه مرة اخرى . ينبغى ان تربيه تربية جيدة .

– لا تقلق . سوف اتأكد من تربيته تربية جيدة .

– اذا بقيت حكومتنا ، حكومة العمال والفلاحين الديمقراطية هنا فابعثى به الى مدرسة لينين الابتدائية .

ثم قرب السراج منى ليتمكن من رؤيتى وتمتم قائلا :

– عندما يصبح دونغ تسى فى عمرى لا بد ان تكون الحياة حسنة .

وشعرت بيده تمر على وجهى وهى كبيرة خشنة قوية دافئة . وواصل حديثه :

– عندما كنت فى عمره لم تمر بى ايام جميلة شبيهة بهذا اليوم . فاليوم لدينا حكومة العمال والفلاحين الديمقراطية والحرس الاحمر ، ولدينا الحزب الشيوعى والجيش الاحمر .

قالت امى :

– لو لم يكن من المقرر ان ترحلوا واستمرت حياتنا مثل هذه لكان ذلك حسنا .

– كلا . ان الايام الحسنة الحقيقية سوف تحل بحلول الاشتراكية . والايام الاحسن سوف تحل بحلول الشيوعية .

سألت امى غير مدركة تماما ما قصده والدى .

– ماذا تعنى بايام احسن ؟

قال والدى بلهجة تنم عن مغزى بعيد :

– سوف تتم الاطاحة بكل الطغاة المحليين والوجهاء الاشرار ويتحرر الفقراء . ولن يكون هناك استغلال ولا اضطهاد . وسوف يعمل الفلاحون والعمال من اجل المصالح العامة . وكل الكادحين سينعمون بحياة جيدة . وكل الاطفال سيتمكنون من الذهاب الى المدارس . . .

بعد ان قالت امى بفرح " ايه ! " استمر والدى قائلا :

– من اجل تحقيق كل هذا لا بد من ان نقاتل !

وبينما كانا يتحدثان حضرنى النوم مرة اخرى ، ورأيت فى الحلم انى اذهب الى المدرسة وانا احمل حقيبة على كتفى . ان مبنى المدرسة قد انشئ من الطوب وسقفه قد صنع من القرميد . ومعى عدد كبير من التلاميذ وكلهم يرتدون ملابس جديدة . . .

صحوت فى الصباح على صوت الطبول والصنوج . وكان والداى قد استيقظا من قبل وغادرا المنزل فلبست ملابسى بعجلة وسارعت الى الخروج . وكان البيدر الشرقى يعج بالناس وكانت تتردد فى الفضاء هتافات وشعارات . شققت طريقى الى المقدمة واكتشفت ان ذلك كان وداعا للجيش الاحمر . بحثت فى كل مكان عن والدى ولم اعثر له على اثر . وفجأة ربت على كتفى احد الناس . درت الى الوراء فاذا بها امى تقول :

– تعال الى البيت حالا يا بنى . ان والدك سوف يذهب .

سرت وراء امى الى البيت . كان والدى مرتديا بذلته العسكرية ،

وعلى ظهره مزادة وقبعة منسوجة من الخيزران واحذية صنعتها امى له . حملنى على ذراعيه وقبل خدى وقال :

ـ ان والدك سوف يذهب لقتال الحرس الابيض يا بنى ، فكن ابنا حسنا وافعل ما تطلب منك امك .

فطوقته بذراعى وقلت له :

ـ اذهب يا ابى وحارب الحرس الابيض ! سوف اذهب واقاتل أيضا عندما اكبر .

ابتسم والدى وقبلنى مرة اخرى ثم وضعنى على الارض . واخذ كتابا من على المنضدة وقدمه الى قائلا :

ـ هذا كتاب من مقررات مدرسة لينين الابتدائية . خذه وقم بدراسته .

كان على غلاف الكتاب نجمة حمراء ومطرقة ومنجل . سألت والدى :

ـ متى يمكننى ان اذهب الى المدرسة يا ابى ؟

ـ عندما تفتح المدرسة ابوابها مرة ثانية سوف تأخذك امك الى هناك .

ثم همس فى اذن امى شيئا ،

فهزت رأسها ايجابا . ووضعت فى حقيبته البيض الذى سلقته وخرجت معه . امسكت انا بطرف سترة والدى وصرخت :

ـ عد حالما تنتصر !

التفت والدى الى . وبعد هنيهة من التفكير نزع نجمة حمراء من حقيبته وقدمها الى :

ـ سوف اترككم مدة طويلة . واذا كنت مشتاقا الى فانظر الى هذه النجمة الحمراء .

قبضت بشدة على النجمة الحمراء وعيناى مركزتان على والدى . فربت ربتة اخيرة على رأسى واتجه نحو البيدر الشرقى ليسير مع الجيش الاحمر . . .

٢

انقضى شهر واحد بعد ان غادرنا والدى مع الجيش الاحمر ، وسألت امى :

ـ لماذا لم يعد والدى حتى الآن ؟

اجابتنى امى :

ـ سوف يعود عندما ينتهى القتال .

مضى شهر تلو الآخر ، ولم يعد والدى بعد . وسألت امى مرة ثانية :

ـ ألن يعود والدى الى البيت ؟

اكدت امى قائلة :

– سوف يعود .

– متى ؟

تماديت فى سؤالى وانفجرت باكيا ، فضمتنى امى بين ذراعيها وقالت :

– لا تبك يا دونغ تسى ، سوف يعود والدك عندما يتم القضاء على الحرس الابيض .

ثم اشارت الى جهة الجبل الجنوبى قائلة :

– انظر ، يا دونغ تسى ! عندما تتفتح الازهار هناك من جديد يعود والدك !

– متى يحدث هذا ؟

– فى الربيع .

آه ، الربيع ! عد بسرعة ايها الربيع !

وبما ان امى اخبرتنى بأن والدى سوف يعود عندما تتفتح الازهار من جديد فى الجبل الجنوبى ، فقد كنت دائما ما اتسلق الجبل لأرى ما اذا كانت هناك ازهار . ذات يوم وقفت على قمة الجبل ارسل بصرى الى الطريق فى اسفل الجبل آملا ان ارى موكبا من الرجال والخيول متجها نحوى على جناح السرعة ، وبينهم والدى . ولكن لم يكن هناك سوى رجلين يحملان الحطب على ظهريهما . فى الماضى كان ذلك الطريق بمثابة سوق دورية مكتظة بالناس . . منهم من يرسل الحبوب لدعم الجبهة ، ومنهم رجال الجيش الاحمر ، القاصدون الى الجبهة ، ومنهم الفلاحون الذاهبون الى الحقول . فأين اختفى كل هؤلاء اليوم ؟

رميت ببصرى الى الافق البعيد حيث شاهدت فجأة جماعة من الناس ومن بينهم من يحمل البنادق . عندها خاطبت نفسى فى فرح : هذا هو الجيش الاحمر يعود ! فاندفعت راكضا الى اسفل الجبل بكل ما لدى من سرعة . ولكننى توقفت هناك فجأة ! اذ لاحظت ان اولئك الرجال فى الزى الرمادى يختلفون عن افراد الجيش الاحمر . كان افراد الجيش الاحمر يرتدون قبعات مثمنة الزوايا ، اما هؤلاء فقد كانت قبعاتهم مستديرة ، كما كانت على كل قبعة من قبعات افراد الجيش الاحمر نجمة حمراء بينما كانت على قبعة كل من هؤلاء شارة بيضاء صغيرة . عندها اشتد خفقان قلبى ، ماذا ؟ ! رجال الحرس الابيض ! وعندما دققت فيهم النظر وجدت بينهم الطاغية المحلى هو هان سان الذى طاف به الاهالى فى القرية وعلى رأسه طرطور طويل من الورق . اذن فقد عاد الحرس الابيض وذلك الشخص الشرير ! ورجعت على عقبى راكضا الى البيت .

ولم اكد ادخل بوابة المنزل حتى وجدت امى ترتب بعض الأغراض المنزلية ، وكانت على طرف السرير صرتان من الامتعة . قلت لاهثا لامى :

ـ يا امى ، عاد الحرس الابيض وعاد هو هان سان ايضا ! فماذا نفعل ؟

بدت امى اكثر حرصا وحذرا بعد سماع كلامى ، فجذبتنى نحوها وفتقت زاوية من زوايا سترتى ، واخذت من تحت الحصير المفروش على السرير النجمة الحمراء التى تركها لى والدى ، ووضعتها فى الزاوية ثم حاكتها فى داخلها . وسألتها :

ـ اين تلك الرصاصة ؟

قالت امى مشيرة الى شجرة الرمان فى فناء الدار :

ـ دفنتها تحت تلك الشجرة !

ـ وماذا بشأن كتاب المدرسة الابتدائية ؟

اشارت امى الى احدى الصرتين قائلة :

ـ فى داخلها .

ـ وماذا نفعل بعد ان عاد رجال الحرس الابيض ؟

ـ اذا جاء اى منهم وسأل اى سؤال فلاتجب بشئ مهما كان السؤال .

اطرقت رأسى ايجابا .

انتهت امى من الحياكة وجلست على حافة السرير تفكر . وعندما نهضت مستعدة للخروج من الغرفة سمعنا ضوضاء فى الخارج . فقد جاء هو هان سان على رأس مجموعة من رجال الحرس الابيض ، ودخل مختالا مزهوا ووقف فى وسط الغرفة مشيرا بعصاه الى امى وسأل :

ـ اين زوجك ؟

اجابت امى ببرود دون ان تنظر اليه :

ـ لقد ذهب الى الشمال لقتال الغزاة اليابانيين .

قال هو هان سان وقد جحظت عيناه :

ـ اصابه الخوف من عودتى ففر هاربا ، أ ليس كذلك ؟

ـ الصعاليك القذرون هم وحدهم الذين يهربون !

هذه اول مرة اسمع فيها امى تسب احدا ، لأن هو هان سان ، فى ذاكرتى ، هو الذى لاذ بالفرار .

نبضت العروق على صدغى هو هان سان وصر بأسنانه وحملق فى امى ممسكا بها وقال :

– قولى ! اين زوجك ؟

ظلت امى ساكنة فسدد الى وجهها لطمة وصرخ :

– ان لدى حسابا كبيرا اود تسويته مع زوجك !

دفعت امى يد هو هان سان جانبا ووقفت منتصبة فى تجاهل له .

فجأة وجدنى هو هان سان وتقدم نحوى وتمسك بى سائلا :

– قل ، اين والدك ؟

عندها تذكرت ما قالته امى لى قبل لحظة فلم احر جوابا . وشد ذلك الشرير فكيه ووجه الى ضربة القتنى على الارض وركلنى بقدمه على بطنى . فتأوهت ، بيد اننى لم ابك . ونهضت واقفا لتوى دون ان اجيب .

وضغط هو هان سان على رأسى بيده قائلا :

– قل ، اين والدك ؟

وفى لمحة بصر رفعت يدى الاثنتين وتمسكت بيده تمسكا شديدا وعضضت اصبعها بكل ما فى وسعى ، فأطلق صرخة الم كما يصرخ الخنزير عند ذبحه ، وحاول ان يسحب يده من فمى ، غير اننى لم اتركها آملا ان اقطع اصبعه بأسنانى . وعندما باءت محاولته بالفشل مد يده الاخرى كى يخرج مسدسه ، وفى الوقت نفسه تحرك اتباعه الذين كانوا يقفون جانبا لمساعدته فبدأوا يجروننى ويبعدوننى عنه . وشاهدتنى امى فى حالة خطيرة فأمرتنى بأن اتركه ، وجذبتنى خلفها . لقد كان الدم ينساب من اصبع هو هان سان ، وتجعد وجهه من شدة الالم ، وصوب مسدسه نحوى .

تقدمت امى لتقف بينى وبينه وصرخت فى وجهه بحدة :

– ماذا بك ؟ كف عن ارهاب ولدى ! اذا كنت شجاعا فصف حسابك مع الجيش الاحمر !

فى هذا الوقت تجمع الجيران الكثيرون فى الساحة . وعندما شاهدوا هو هان سان يصوب مسدسه نحوى اندفعوا جميعا الى الغرفة ، وصاحوا فى وجهه :

– اف لك ، أ تجرؤ على ذلك ؟ ! اخفض مسدسك !

– لم يبتعد الجيش الاحمر كثيرا من هنا !

– اذا جرؤت على اصابة هذا الطفل بسوء فسوف تدفع حياتك ثمنا لهذا !

اكره هو هان سان على المطامنة من كبريائه حينما سمع اقوال الجميع ، فاختلس النظر الى الجماهير الغاضبة حوله ، وراح يخرج منديلا ليلف به اصبعه ، ثم صرخ :

– لا يمكن للكاهن الهارب ان يحمل معه الدير ، وسوف اصفى حسابى معكم واحدا تلو الآخر !

فأمر رجاله بأن يفتحوا له طريقا وسط الحشد ، وتحرك خارجا وهو يمسك اصبعه ووجهه حالك اللون كالسحاب القاتم .

وبعد ان عاد هو هان سان الى القرية كنت انا وامى مستعدين لمواجهة اسوأ الامور فى اى وقت من الاوقات . فى ذلك المساء قمنا بحفر ثغرة عند اسفل الحائط فى ساحتنا الخلفية كى نستطيع الخروج منها فى الحالة الطارئة . كان مخرج الثغرة مستترا بدغل الخيزران ويؤدى الى واد كبير ، اما مدخلها فقد واريناه بحجر مسطح كبير ونشرنا

فوقه قش الارز .

مرت ايام ولم يأت هو هان سان الى بيتنا . وكانت امى تخرج فى الليل دائما ولا تعود الا قبل الفجر . وسألتها ذات مرة اين تذهب وماذا تفعل ، فاجابتنى :

— ان ما يفعله الكبار ليس من شأنك فلا تسأل ! انى لم اخرج . اذهب الى النوم !

ومن ذلك عرفت ان السؤال لا يجدى .

لقد تغيرت قرية ليوشى تغيرا تاما منذ عودة هو هان سان اليها . فقد ذهب الحرس الاحمر الى الجبال ، وما من احد فى الشوارع الا بضعة متسكعين من رجال " فصيلة حفظ الامن " البيضاء ، ولم يعد هناك حكومة ديمقراطية للعمال والفلاحين فى القرية . واصبح هو هان سان " قائد الفصيلة " فامر رجاله بمسح الشعارات التى كتبها الجيش الاحمر على حيطان البيوت قبل مغادرة القرية ، وكتابة بعض الكلمات الخبيثة محلها . وفى النهار لم يعد القرويون يغنون او يهتفون بالشعارات فى الشوارع ، وكذلك اختفت الاعلام الحمراء البراقة ، وحتى الطقس اصبح معتما يثير الملل .

غدوت مشتاقا الى والدى والى الجيش الاحمر بصورة اشد من اى وقت مضى ، وكم كنت اتمنى ان يعودوا بسرعة لالحاق الهزيمة بالحرس الابيض . وبعد رأس السنة القمرية الجديدة كنت متلهفا لحلول الربيع الذى ستتفتح فيه الازهار من جديد . ذات مساء تسلقت الجبل الجنوبى لأرى ما اذا كانت به زهور ، ولكن لخيبة املى لم تكن هناك زهور . واغمضت عينى هنيهة آملا رؤية الزهور تتفتح فى الجبل

حينما افتحهما من جديد . وفجأة سمعت صوتا ينادينى بالاسم ، فراودتنى رعشة . وعندما فتحت عينى والتفت الى الوراء شاهدت احد الحطابين ، وما ان رفع قبعته الخيزرانية عن وجهه حتى عرفت انه الاخ وو شيو تشو ، فاطلقت صيحة فرح ودهشة :

– يا اخ وو !

سألنى :

– هل امك فى البيت ؟

– موجودة .

– اخبرها بأننى سوف ازورها حوالى منتصف الليل . فعندما تسمع ثلاث طرقات متتالية على الباب يمكنها ان تفتحه .

هززت رأسى موافقا وانا اقول :

– حسنا . لكن متى يعود والدى ؟

– انه يقاتل بعيدا جدا عن هنا ، وكيف يستطيع ان يعود خلال هذا الوقت الوجيز ؟

– لقد عاد هو هان سان !

تخلل الاخ وو شعر رأسى بأنامله وهو يتطلع الى قريتنا الساكنة سكون الموت . وبعد هنيهة من الصمت قال بلهجة كلها قوة وثبات :

– سنقضى عليهم فى يوم من الايام !

وعندما شاهد شخصا فى اسفل الجبل خفض صوته قائلا :

– تذكر ما قلته لك ! عد واخبر امك به . ولكن لا تنطق بحرف واحد لاى شخص آخر !

وما ان انهى قوله حتى ادار ظهره متجها نحو اعماق الجبل .

وبعد ان اختفى عن ناظرى هرعت الى البيت لاخبر والدتى . فلما سمعت كلامى بدت امارات من الفرح على وجهها للمرة الاولى منذ ان عاد هو هان سان . وفى ذلك المساء بعد ان لزمت سريرى جلست والدتى الى جانبى تنتظر ، وقد ظللت سراجنا الزيتى الصغير بسلة خيزرانية حتى لا يرى الضوء من خارج الغرفة .

كنت نائما عندما سمعت همس اصوات ، ولأنى كنت على علم بزيارة الاخ وو المرتقبة فتحت عينى فورا وشاهدته على الضوء الخافت يتحدث الى امى ، كان الاخ وو يقول :

— ان الجيش الاحمر قد اتجه شمالا لقتال الغزاة اليابانيين ، ولن يعود مؤقتا ، وستقع الاعباء الثقيلة على اكتافنا من الآن فصاعدا . كيف الوضع فى القرية ؟

قالت امى :

— ان هو هان سان يحاول ان ينظم عصبة مسلحة ، ولذلك يطالب الجماهير ان تقدم له الحبوب والبنادق والرجال ، الا انه ما من قروى يتعاون معه . لقد زرت عدة عائلات مساء الامس ، وعبروا كلهم عن عزم واحد ، هو انهم يؤثرون الموت على تقديم الحبوب والبنادق والرجال له .

قال الاخ وو :

— هذه هى الروح الحميدة ! علينا ان ننظم الجماهير الثورية تنظيما جيدا للمقاومة ضده حتى النهاية .

ثم اردف بعد لحظة :

— ان فرع حزبنا قد وافق على طلبك الانضمام الى الحزب ،

ومنذ الآن اصبحت مقاتلة داخل الحزب فى هذه القرية ، وعليك ان تقودى الجماهير من اجل الكفاح ضد العدو .

اطبقت امى على يد الاخ وو واجابته بصوت رزين :

– سوف اطيع الحزب فى كل شىء ، وسوف اؤدى كل مهمة يوكلها الى .

– عليك ان تؤدى القسم الآن .

وهكذا وفى سكون الليل انعكس ظلاهما كبيرين على حائط الغرفة وهما يرفعان قبضتيهما . عندها شعرت بأن هذه اللحظة مهيبة ولم اجرؤ على الاتيان بأى صوت ، كما احسست بدفء عظيم يغمرنى ، ولاحظت فجأة ان معرفتى عن الثورة ازدادت كثيرا عما كانت عليه : ان الثورة تتقدم بالاعتماد على هؤلاء الشيوعيين وهم فى طليعتها . وكما فعل الاخ وو وامى ، كانوا يعملون طوال النهار والليل على عقد الاجتماعات

وقيادة فرقة العصابات لقتال الحرس الابيض كيفما كان الطقس ، مركزين كل اهتمامهم على مصلحة الفقراء والمضطهدين ، ولا يظهرون اية علامة ولو مثقال ذرة تدل على الضعف امام العدو . انهم اقوياء الارادة اذ ادوا القسم امام الحزب . متى سأصبح مثلهم واؤدى قسمى ؟

بعد اداء القسم تحدثا لمدة من الزمن حول كيفية قيادة الجماهير الى خوض النضال ضد العدو ، ثم سألت امى :

ـ أ تعرف اين والد دونغ تسى الآن ؟

ـ وصل مع الجيش الاحمر الى مقاطعة سيتشوان .

ثم واصل حديثه بلهجة قوية :

ـ خلال المسيرة الكبرى عقدت لجنة الحزب المركزية مؤتمرا فى بلدة تسونيى صحح الخط " اليسارى " الخاطئ ، واثبت قيادة الرئيس ماو فى اللجنة المركزية . وبقيادة الرئيس ماو كسب الجيش الاحمر انتصارات عديدة ، مما غير الوضع السلبى تغييرا جذريا .

قالت امى :

ـ ما اروع قيادة الرئيس ماو !

فجأة ارتفع نباح الكلاب من الخارج ، فاطفأت امى السراج الصغير فورا . واصغت بانتباه شديد الى ما حدث فى الخارج وبدأ يتضح للآذان وقع اقدام . وتقدمت امى منى وهزتنى فنهضت واقفا . وعندذاك سمعنا احد الناس يدق بابنا ، فدفعت امى صرة الى ، وحملتنى على احد ذراعيها ، وبيدها الاخرى جرت الاخ وو الى الساحة الخلفية . انزلتنى عند الثغرة المحفورة وازاحت القش عنها ورفعت الحجر وهمست للاخ وو :

ـ اذهب بسرعة !

فخرج منها الاخ وو ثم دفعتنى امى الى خارج الثغرة . وعندما كانت على وشك الخروج سمعنا طرقات شديدة على الباب ، فانسحبت امى فورا الى الوراء ، وسأل الاخ وو بقلق من خارج الحائط :

ـ ماذا تنتظرين ؟

قالت امى :

ـ لايجوز ذلك ، وسوف يجدنا العدو . خذ دونغ تسى واذهبا بسرعة عن طريق الوادى !

قال الاخ وو :

ـ ولكن لا يمكنك البقاء هنا !

فى ذلك الوقت كانت بوابتنا تواجه طرقا عنيفا كاد يحطم مصراعيها ، فقالت امى للاخ وو بعد ان قدمت له سترتها :

ـ ضع هذه على كتف دونغ تسى ، واذهبا بسرعة !

ثم اعادت الحجرة الى مكانها ونثرت القش فوقها وذهبت الى الساحة الامامية . حينذاك سمعت صوت الباب ينفتح من شدة الطرق . . ماذا سيحدث لامى ! كنت احاول ان اناديها ، بيد اننى لم اجرؤعلى ذلك ، وفجأة سمعت احدهم يصرخ :

ـ لماذا لم تفتحى الباب ؟

دق قلبى بعنف شديد كأنه سيخرج من جوفى . ليت امى جاءت معنا ! وبعد برهة سمعت صوتا معروفا يسأل :

ـ من الذى كان معك ؟

لم تكن هناك اجابة .

– اين ابنك ؟

لاذت امى بالصمت .

استمر الصوت :

– اين السفاح الصغير الذى عضنى ، لقد جئت اليوم لأكسر اسنانه !

كان الصوت صوت هو هان سان .

– قولى ، اين خبأت ذلك الرجل ؟ اين ابنك ؟

ما من اجابة ايضا .

عرفت ان العدو قد القى القبض على امى ، واردت ان ارجع على عجل من هذه الثغرة ، الا ان الاخ وو منعنى من ذلك وهمس فى اذنى :

– لا تتحرك !

وبعد ان اخفانى وراء صخرة كبيرة اخرج مسدسه وقفز بخفة الى اعلى الحائط . وفى الوقت نفسه سمعت هو هان سان يقول :

– هى ترفض الكلام ، فتشوا بيتها !

كانت الاعشاب تخشخش تحت اقدام رجال الحرس الابيض وهم يفتشون الساحة . وبينما كنت فى قلق وتوتر اطلق الاخ وو طلقة واحدة ثم ثلاث طلقات اخريات ، وخيل الى ان ثمة شخصين سقطا على الارض داخل الحائط ، وكذلك سمعت الاخ وو ينادى بصوت عال من اعلى الحائط : " المجموعة الاولى ، اتجهى نحو الشمال ! المجموعة الثانية الى جهة اليمين ، احيطوا بهم ! "

وفى اثناء ضجة وصخب وقع الاقدام اطلق الاخ وو طلقتين اخريين . اما انا فأصابتنى حيرة ودهشة اذ اننى عرفت انه حضر وحده ،

فمن اين ظهرت هذه المجموعات فجأة ؟ وعندما استغرقت فى التفكير قفز الاخ وو نازلا عن الحائط ، وفى الوقت ذاته خرجت امى من الثغرة وهى تقول :

ـ هربوا كلهم من شدة الخوف !

قال الاخ وو لنا :

ـ هيا بنا ، لنسرع !

ثم حملنى على ظهره ، وغادرنا دغل الخيزران متجهين عن طريق الوادى الى مكان بعيد .

قبيل الفجر وصلنا غابة من الاشجار فى اعماق الجبال حيث شاهدت بعض الوجوه المعروفة من رجال الحرس الاحمر فى قريتنا ، كما شاهدت عددا كبيرا ممن لا اعرفهم . وسألت الاخ وو عما يفعله اولئك الرجال هناك ، فأخبرنى :

ـ نحن مقاتلون من فرقة العصابات !

كنت متعبا بعد ذلك الازعاج فى الليل ، فغططت فى النوم حالما وضعتنى امى فى احد الكهوف تبعا لرأى الاخ وو .

عندما صحوت وجدت رأسى على الصرة التى احضرناها من البيت ، وسترة امى تغطينى . وملت على احد جانبى مناديا : " ماما ! "

الا اننى كنت وحيدا فى الكهف . ونهضت على قدمى وخرجت . كانت تحيط بهذا المكان جبال شاهقة واشجار كبيرة ، ورأيت الاخ وو جالسا فى ظل شجرة ضخمة يتحدث مع امى وبعض رجال الحرس الاحمر . قال الاخ وو :

ـ ان العدو يقوم بتنظيم وحدات مسلحة معادية للثورة فى كل

القرى ، ويريد استخدام هذه القوات الرجعية للقضاء علينا ، ولهذا علينا ان نعبئ الجماهير للنضال ضد هو هان سان وغيره من رجال الحرس الابيض ؛ فلا نقدم لهم الحبوب والبنادق والرجال . . لا شئ يقدم للعدو ! وعلى بعض الرفاق ان يذهبوا الى قرى جينغشان وليوشى وبنغقانغ .

وبعد ان انهى الاخ وو كلامه عين رجالا للذهاب الى كل من هذه القرى . حينئذ تطوعت امى قائلة :

– اسمحوا لى بالذهاب الى قرية ليوشى ، لاننى اعرف الناس هناك .

قال الاخ وو معترضا :

– لقد قطعت مسافة طويلة فى الليل وعليك بالراحة .

اصرت امى وهى تقول :

– من الافضل ان يكون الرفاق اكثر ، ولست بحاجة الى الراحة . دعونى اذهب !

وافق الاخ وو ثم قال مخاطبا رجلا بجانبه :

– يا رفيق تشن جيون ، اصطحب ام دونغ تسى الى قرية ليوشى . وادخلا بعد ان يحل الظلام وغادراها قبيل الفجر .

ثم ناول الاخ وو للعم تشن جيون قنبلة يدوية فدسها فى حزام خصره . ودنت منى امى قائلة :

– لدى عمل الآن يا دونغ تسى وسوف اعود غدا ، فيجب الا تكونى عفريتا اثناء غيابى .

ثم بدأت امى والعم تشن جيون ينزلان معا من الجبل .

لم تعد امى صباح اليوم التالى . وعند الظهر ذهبت اجلس على

صخرة وانا سارح ببصرى تجاه قرية ليوشى .

وفيما كانت الشمس تميل نحو الغروب ، رأيت شخصا يصعد الجبل ، ها هو العم تشن جيون ! فسألته :

– اين امى ، يا عم ؟

نظر العم تشن جيون الى ولم ينبس ببنت شفة ، ثم حملنى على ذراعيه يسير بى الى شجرة كبيرة حيث شاهدت الاخ وو . ووضعنى على صخرة وجلس الى جانبى ، وحتى هذا الوقت لم ينطق حرفا . ونظر الاخ وو الى العم تشن جيون ثم نظر الى وسأل :

– ماذا حدث عند قرية ليوشى ؟

تنهد العم تشن جيون تنهيدة عميقة وجذبنى نحوه ، وتدفقت الدموع من عينيه .

كرر الاخ وو سؤاله وقد امتقع وجهه :

– ماذا بك ؟

– ذهبت ام دونغ تسى ضحية !

كادت الصدمة تكبت انفاسى ، وانفجرت باكيا ، واندفعت راكضا نحو قرية ليوشى ، ولكن العم تشن جيون لحقنى بسرعة وحملنى بين ذراعيه وسألنى :

– اين تذهب ؟

– اريد ان ابحث عن امى !

– لا فائدة من ذلك يا دونغ تسى !

فأصابتنى نوبة من الاجهاش والنشيج .

قادنى العم تشن جيون راجعا واجلسنى على الصخرة ، وسأله الاخ

وو عما حدث بالتفصيل .

فقال العم تشن جيون :

– عندما ذهبنا الى قرية ليوشى مساء الامس زرت مع ام دونغ تسى عدة عائلات ، وشرحنا للناس كيفية سير كفاحنا . كانوا كلهم يتحرقون للنضال ضد هو هان سان . وحوالى منتصف الليل ونحن على وشك ان نغادر آخر منزل للعودة الى الجبل ، فاجأنا هو هان سان ورجاله واحاطوا بنا . فرميت القنبلة اليدوية الوحيدة التى كانت لدينا ، واطلقنا اقدامنا للريح خارجين من القرية ، ولكنهم طاردونا بشدة . ولما وصلنا احد النهيرات دفعتنى ام دونغ تسى الى مكان امين على ضفته بينما ظلت تحبو وتقذف العدو بالحجارة . اخبرتها بأن تركض بسرعة ولكنها صاحت بملء فمها : " اسرع ! عليك ان تعود الى الجبل وتبلغ القيادة بما حدث ، ولا تعبأ بى ! " وبدأت تركض وترمى العدو بالحجارة حتى تجذب العدو الى اتجاهها فأتخلص من مأزق حرج ...

واصل العم تشن جيون حديثه :

– انا لم اتجه مباشرة الى الجبل بل عدت الى قرية ليوشى مرة اخرى عند الفجر لأستفهم عما حدث لها . وهناك وجدت الناس يتحدثون عن ام دونغ تسى وكيف تصرفت كشيوعى حقيقى . انها لم تبح بسر من الاسرار بعد اعتقالها . وعندما ادرك هو هان سان عجزهٔ عن اجبارها على الكلام علقها على شجرة ضخمة وكوم الخشب والعشب تحتها ليحرقها . فاستشاط اهالى القرية غضبا واندفعوا صارخين لانقاذها . الا ان هو هان سان امر رجاله المسلحين بالاحاطة بها

فلم يستطع الاهالى الوصول اليها . وعندما شاهدت ام دونغ تسى الجمهور المتجمع صاحت بصوت عال : " لا تخافوا ايها المواطنون ! ايام الحرس الابيض معدودة ، سيعود الجيش الاحمر عما قريب ! لا تطيعوا امر هو

هان سان . . . لا تقدموا له الحبوب ولا تنخرطوا فى " فصيلة حفظ الامن " . . . وعندها اشعل العدو النار تحت قدميها . . .

وفى هذه اللحظة لم يستطع العم تشن جيون مواصلة الحديث واختنق بالبكاء . وقتئذ خيل الى اننى المح امى تقف وسط النار المتأججة ، وتتوقد عيناها الكبيرتان وهى تشير باصبعها الى هو هان سان الذى كانت فرائصه ترتعد من الخوف ، بينما كانت يدها الاخرى مرفوعة مطبقة القبضة كما رأيتها قبل ليلتين عندما ادت القسم . . . اللهيب يتصاعد اعلى فاعلى ، ومن جسم امى تنبعث خيوط الاشعة الحمراء الى الجهات الاربع . . .

٣

سببت لرجال فرقة العصابات متاعب كثيرة ، فخلال المسيرة كان العم تشن جيون يحملنى على ظهره . وعندما يحل به التعب يحملنى

غيره .

ذات يوم ، عاد الاخ وو من الوادى ومعه رجل عجوز . وبعد وقت قليل ، نادانى وقال لى :

ـ لقد وجدت لك بيتا يا اخى .

نظرت اليه ثم الى الرجل العجوز الذى تجعد وجهه مبتسما لى . فأوضح الاخ وو ان ذلك الرجل هو العم سونغ ، وانه سيأخذنى الى بيته فى الوادى لأسكن معه .

صحت قائلا : " لن اذهب ! " والدموع تملأ عينى . فمنذ موت امى بدأ الاخ وو يقوم برعايتى كالاب ، واصبحت فرقة العصابات اسرتى ، فكيف استطيع ان احتمل تركها . جذبنى الاخ وو نحوه وهو يلمس رأسى موضحا :

ـ نحن سنقاتل ، وسنضطر الى تنظيم المسيرات . وانت ما زلت صغيرا والمكان ليس مأمونا بالنسبة لك . اذهب مع العم سونغ ، وسوف يرعاك بصورة جيدة . واعدك بأن ازورك كلما كان ذلك ممكنا .

فقلت له :

ـ عندما تكبر سنى سوف آخذ الثأر لامى ، ولكن كيف يمكننى ذلك اذا غادرتكم ؟

ـ لا بد من سنوات يشتد فيها عودك ، فنحن نثأر لأمك . وعندما تكبر نأتى ونأخذك .

كنت مستندا الى الاخ وو ممسكا بطرف ثوبه ، فتقدم منى العم سونغ قائلا :

ـ يجب الا تكون عنيدا يا بنى . انهم سيخوضون المعارك كل

يوم ، فستكون عبئا عليهم اذا حملوك معهم .

نظرت الى وجه العم سونغ الذى كان متشحا باللطف والحنان . اخذنى بيده وجذبنى نحوه . كانت يده كبيرة ودافئة مثل كف والدى تماما .

احضر الاخ وو السترة والصرة اللتين اعطتنيهما امى وسلمهما الى العم سونغ قائلا :

ـ يا رفيق سونغ ، سوف نتعبكم كثيرا ! هذا الطفل ابن الثوريين ، علينا ان نرعاه رعاية جيدة .

ـ لا تقلق يا امين وو ، فاننى اعدك بأن اربى هذا الطفل من اجل الثورة طالما بقيت على قيد الحياة .

ثم حمل الصرة ووضع سترة امى على كتفى واخذنى بيدى قائلا :

ـ يا بنى فلنذهب .

قطعنا مسافة ليست قصيرة مع الاخ وو والعم تشن جيون وعدد من الرجال الآخرين هابطين من الجبل . وعند منعطف تل صافح الاخ وو يد العم سونغ وقال :

ـ ان هذا الولد برعم على شجرة الثورة يا رفيق سونغ ، وعليك ان ترعاه رعاية جيدة .

فقال العم سونغ :

ـ اعرف تماما ، كن مطمئنا .

ربت الاخ وو على رأسى مرة اخرى ثم قال :

ـ اذهب الآن مع العم سونغ !

بعد ان ودعت اخى وو ورجال فرقة العصابات الآخرين القيت نظرة وداع على الجبال المألوفة . عندها ظن العم سونغ اننى متعب ، فحملنى

على ظهره ، ثم مضينا فى السير .

كان العم سونغ يقطن وحيدا فى كوخ بقرية تقع عند اسفل الجبل . وبعد ان وصلنا بيته ، اخبر جيرانه بأن احد اللاجئين الفقراء قد طلب منه ان يرعانى ولهذا تبنانى . وكان على ان اناديه بالعم . وهكذا بدأت الحياة مع العم سونغ .

اصبح الطقس دافئا وتذكرت ما قالته امى : حينما تتفتح الازهار فى الجبل الجنوبى من جديد يعود والدى . ولهذا صعدت الى الجبل فى انتظار والدى وكانت الحشائش قد اصبحت خضراء . ولكن لم تكن هناك زهور وانما اخضرت الاعشاب البرية واورقت ، وفى اعتقادى انها ستزهر عما قريب !

ذات يوم ، عندما ذهبت مع عمى الى الجبل لجمع الحطب ، رأيت نقطة صفراء على ربوة ، واقتربت منها ، فاذا بها زهرة ذات ثمانى بتلات ، كانت متفتحة للشمس فى لون ذهبى رائع الجمال ! فندت عنى صيحة سرور " سيعود والدى عما قريب ! " ثم اوضحت ذلك للعم سونغ :

— انظر هذه الزهرة يا عمى ! لقد اخبرتنى امى بأنه عندما تتفتح الازهار على الجبل الجنوبى يعود

والدى مع الجيش الاحمر .

قلت ذلك وتسلقت صخرة كبيرة لاشاهد الطريق فى اسفل الجبل ، وجلس العم سونغ ايضا على صخرة اخرى .

واخيرا قال لى العم سونغ :

ـ حان وقت العودة الى البيت يا بنى .

الا اننى لم اتحرك، وما برحت اطل على الطريق حتى حل الظلام ، ولم تعد رؤية الطريق ممكنة . جاءنى العم سونغ وانزلنى عن الصخرة وطبع قبلة على وجنتى ، ثم تحركنا متجهين الى البيت .

صحوت عند الفجر فى اليوم التالى حاثا العم سونغ على الذهاب الى الجبل لنجمع الحطب . ظهرت زهور اكثر فى ذلك اليوم ، منها ما هو احمر ومنها ما هو ابيض او اصفر ، وكدت اطير فرحا ، فقد ايقنت عند ذلك ان والدى ورجال الجيش الاحمر سوف يعودون فى يوم من هذه الايام حتى يثأروا لامى ويلقوا القبض على هو هان سان ويطوفوا به فى انحاء القرية وهو يلبس طرطورا طويلا من الورق ، ثم يعدموه رميا بالرصاص . وعندما وصل بى تفكيرى الى هذا الحد لم اتمالك نفسى عن فتق طرف سترتى ، واستخرجت النجمة الحمراء ، فتألقت لامعة على ضوء الشمس جميلة كالزهرة الحمراء . قادنى العم الى اعلى الجبل حيث جلسنا على صخرة ، واخذ منى النجمة الحمراء ليفحصها وهو يلمس رأسى قائلا :

ـ سوف يكون ذلك يوما رائعا يا بنى عندما تلبس قبعة عليها نجمة حمراء كهذه .

قلت له :

ـ سأحيكها على قبعتى يوم يعود والدى .

اومأ العم برأسه موافقا ، ثم طلب منى ان احيكها فى زاوية سترتى مرة اخرى عندما اعود الى البيت . قلت لنفسى : لا حاجة الى ذلك ، سأعلقها على قبعتى ساعة يعود والدى .

جلسنا معا فوق قمة الجبل ، ولما اشرفت الشمس على المغيب ، نهض العم سونغ وركز انظاره على قمة الجبل الاخرى . كانت هناك شجرة صنوبر شاهقة مهيبة ذات اوراق ابرية خضراء داكنة لامعة . فاجأنى العم بسؤال وهو يشير الى تلك الشجرة :

ـ هل الشجرة جميلة وشاهقة يا بنى ؟

ـ نعم . حقا .

ـ وقوية ايضا ؟

ـ نعم .

ـ ان الصنوبر شجر رائع .

واصل العم سونغ حديثه :

ـ انها تتحمل رياح الشتاء القارسة ، كما تتحمل الشمس المحرقة . فهل رأيتها تستسلم ؟

ـ كلا !

ـ صحيح يا بنى ، علينا ان نكون اقوياء وشديدى المراس مثل شجرة الصنوبر .

على الرغم من اننى لم افهم تماما ما كان يقصده العم سونغ ، الا اننى وافقته حق الموافقة .

تابع العم سونغ حديثه :

ـ والآن ذهب الجيش الاحمر ، فلا شك فى ان يعيث الحرس الابيض فسادا ، وتصبح امورنا صعبة . ولكن لن نخاف . يجب ان نكون مثل شجرة الصنوبر التى لا تنحنى خضوعا امام الامطار المنهمرة والعواصف الهوجاء .

رفعت بصرى اليه ، لقد بدت فى وجهه النحاسى تجاعيد عميقة ، وفى عينيه اللامعتين قوة حازمة ، فما اشبهه بشجرة الصنوبر تلك على قمة ذلك الجبل !

ومضى يقول :

ـ انه لا يكفى ان تتذكر فقط ما اخبرتك به املك يا بنى ، بل يجب ان تكون شجاعا مثلها ايضا .

اومأت برأسى موافقا على كلماته . حقا ، كانت امى ذات شخصية عظيمة ، فهى تشبه شجرة الصنوبر ايضا .

قال العم سونغ بعد هنيهة من الصمت :

ـ لا يعود الجيش الاحمر الا بعد هزيمة الغزاة اليابانيين ، ومهما يطل الوقت الذى يستغرقه ذلك يا بنى ، فلا تنس ان والدك من رجال الجيش الاحمر ، وانك ابن احد رجال الجيش الاحمر .

امتلأ قلبى دفئا لهذه الكلمات . فقد كنت مصمما على السير فى طريق والدى ، وعلى الانضمام الى الجيش الاحمر لكى اقوم بالثورة . وعندها تذكرت كلمات امى الاخيرة : " ايام الحرس الابيض معدودة ، سيعود الجيش الاحمر عما قريب ! " كنت على يقين بأن الجيش الاحمر سيعود بكل تأكيد ووالدى معه .

وحل الشتاء .

ذات مساء ، عندما هبت الريح الشمالية وتساقط الثلج بغزارة ، كنت اقرأ على ضوء السراج الزيتى الكتاب المدرسى الذى تركه لى والدى . وكان العم سونغ الذى تعلم قليلا من القراءة فى صغره يجلس بقربى ويشرح لى الكلمات التى لم اكن اعرف معناها ، ثم يحدثنى عن خبراته فى الكفاح الثورى ليوضح لى الدرس . وبالتالى تمكنت من فهم ما ذكر فى الكتاب المدرسى بصورة افضل . وما زلت اذكر بوضوح تام الابيات الشعرية الواردة فى الكتاب :

ايها العمال والفلاحون ،
لا تنسوا ابدا
اننا بدون السلاح
نكون عاجزين كالحملان .
لكى نقف على ارجلنا ،
ولكى نكسب حريتنا ،
علينا ان نحمل السلاح !

انصببت على قراءة الكتاب المدرسى حتى حان وقت النوم ، وعندما استلقيت على المضجع لانام كانت كلمات " لكى نقف على ارجلنا ، ولكى نكسب حريتنا ، علينا ان نحمل السلاح " لا تزال ترن فى اذنى .

نمت وحلمت .. حلمت بأننى عدت الى فرقة العصابات ، وقد كانت هناك اعداد كبيرة من الرجال والنساء يقفون فى صفوف منتظمة وكل منهم ينتظر تسلم البندقية ، فانضممت الى الصف ، ولكن اعطيت رمحا ذا شراريب حمراء ، ومع ذلك رضيت به . كنت احمل هذا الرمح فخورا مبتهجا حيثما ذهبت . وفجأة سمعت هتافا بشعارات ، ماذا حدث ؟

رأيت جماعة من الناس يطوفون بهو هان سان كبير العتاة المحليين فى شوارع القرية ! ولم يكن بوسعى ان اتركه وشأنه ، فاندفعت اليه لأطعنه برمحى . ثم شعرت بشخص يمسك بيدى ، فناضلت لأتخلص منه . وبينما كنت افعل هذا افقت ، فوجدت الغرفة مليئة بالناس ، والامين وو كان يلمس ذراعى . وفى الحال نهضت جالسا وتمسكت به ، ثم قفزت واقفا على قدمى . نادانى الاخ وو :

ـ يا دونغ تسى !

وبادرنى الآخرون بالتحية . اذن عادت فرقة العصابات ، وسألتهم :

ـ ماذا تفعلون هنا ؟

قال الاخ وو :

ـ مررنا بهذا المكان.

اخبرنى العم سونغ :

ـ لقد احرزنا انتصارا آخر . انهم استولوا على عرين الحرس الابيض فى الجبل الجنوبى وغنموا اكثر من عشرين بندقية .

فتضرعت اليهم وانا فى انفعال وسرور :

ـ اعطونى واحدة ! اننى مشتاق اليها حتى فى الحلم .

ضجت الغرفة بالضحك . قال الاخ وو :

ـ تشتاق الى البندقية حتى فى الحلم ! هذا جميل ! الا انك ما زلت صغيرا تعجز عن حمل السلاح . ترعرع بسرعة اذن .

وزادت الضحكات .

جاء عدد كبير من الجيران للترحيب برجال فرقة العصابات الذين يعتبرونهم ابناءهم . يا له من دفء غمر الغرفة ! فى هذه اللحظة حضرت

العمة الثالثة ليو ومعها ستة اجواز من الصنادل صنعتها من الكتان والقماش . وقالت :

ــ خذ هذه يا امين وو .

قال الاخ وو وهو يمسك بيدها مصافحا :

ــ شكرا لك !

اجابت العمة الثالثة ليو :

ــ لا تشكرنى ، فهذه معاملة عائلية .

ــ نحن فعلا فى حاجة ماسة اليها .

قال الاخ وو وهو يخرج قطعة من النقود الفضية من جيبه :

ــ ارجو ان تأخذى هذه يا عمتى الثالثة .

اندهشت العمة الثالثة وشعرت بأن هذا التصرف قد جرح مشاعرها ، فأوضحت :

ــ لم اشتر هذه الصنادل وانما صنعتها لكم من بقايا الاقمشة التى وفرتها . انا اعرف كم من الاحذية تستهلك فى سيركم هنا وهناك .

وفى ذلك الوقت لاحظت التأثر الكبير على كل فرد منهم . اما الاخ وو فقد وضع النقد فى كف العمة الثالثة وقبضها بكلتا يديه قائلا :

ــ انا اعرف مشاعرك يا عمتى الثالثة ، ولكنك تعلمين انضباط جيشنا ، ان الرئيس ماو يعلمنا ألا نأخذ من الجماهير ولو ابرة واحدة او قطعة من خيط .

قالت العمة وهى تضع كفها على كفه :

ــ كيف ؟ أ هكذا تعتبروننا نحن الجماهير ؟ اننا والمقاتلين من عائلة واحدة ، والفرق بيننا هو انهم فى الجبال ونحن فى الوادى .

وبعد ذلك ردت النقد الى الاخ وو واخبرته ان ينفقه فى سبيل الثورة .

ابدى كل من فى الغرفة رأيه . وقد حث رجال فرقة العصابات العمة الثالثة على اخذ النقد بينما ايد الفلاحون رأيها . واخيرا اضطر الاخ وو الى اعادة هذا النقد الى جيبه .

احتشد بالغرفة مزيد من الجيران وتجمهروا حول الاخ وو يسألونه عن سير القتال .

وضع العم سونغ سترة على كتفى وقال :

— اخرج وقم بالحراسة ، واذا ما شاهدت اى انسان غريب يتسلل فاطرق ثلاث مرات على النافذة الخلفية .

شعرت كأننى اصبحت حارسا يؤدى مهمته ، وهرعت خارجا فى سرور .

هدأت الريح ووقف تساقط الثلج وكانت الانوار لا تزال تشع من بعض الاكواخ القشية . وظننت انه لا بد ان يكون فى داخل هذه الاكواخ مقاتلون يتحدثون عن سير النضال ولا بد ان يكون فيها قرويون ايضا مثل العمة الثالثة ليو وفروا بعض الاشياء لتقديمها لفرقة العصابات . لماذا تعتبر الجماهير رجال فرقة العصابات كأهاليهم ؟ لأن المقاتلين يحبونهم ويعتنون بهم ! اجبت سؤالى بنفسى .

وفى ذلك الوقت ظهر احد المقاتلين من القرية ودخل الى بيتنا ، وبعد برهة خرج الاخ وو وبقية رجال فرقة العصابات وتبعهم اولئك القرويون .

سألت الاخ وو :

— هل تغادرون بهذه العجلة ؟

ربت على رأسى :

— يجب ان نواصل سيرنا ، كن ولدا جيدا وافعل ما يأمرك العم سونغ .

اومأت برأسى ايجابا وامسكت بيده . ودعت مع القرويين فرقة العصابات الى خارج القرية .

عندما عدت مع العم سونغ الى الغرفة وجدنا تحت السراج الزيتى ورقة مكتوبة ، وبداخلها النقد الفضى . ولما قرب العم سونغ الورقة من النور رحت اشرئب اليها فتمكنت من قراءة ما بها : " اطلب من العمة الثالثة ان تقبل هذا النقد . شكرا . "

ارتجفت يد العم سونغ من شدة الانفعال وهو يأخذ النقد والورقة ، ثم ذهب وانا خلفه الى العمة الثالثة ليو . وحالما اخبرها بما كان مكتوبا فى الورقة امسكت النقد الفضى اللامع وهى مستغرقة فى التفكير ، ثم قالت :

— حسنا ، سوف اشترى به الكتان واوفر قسطا اكبر من القماش حتى اصنع مزيدا من الصنادل .

هز العم سونغ رأسه موافقا ، كما اخرج من جيبه بعض النقود التى نالها مقابل الحطب الذى باعه فى الامس الاول وقال :

— خذى هذا ايضا ، واشترى مزيدا من الكتان لكى تصنعى صنادل اكثر .

اثر فى نفسى تصرف هذين العجوزين تأثيرا كبيرا . وكم تمنيت ان يكون عندى ايضا ما اقدمه الى فرقة العصابات ! قلت فى نفسى : ما كان منى الا ان اشب بسرعة حتى انضم الى فرقة العصابات واساهم بكل ما لدى .

بيد ان النمو عملية بطيئة . وحل ربيع اثر ربيع . وعند الربيع السادس بلغت الثالثة عشرة من عمرى ، فطلبت من العم سونغ اكثر من مرة وبالحاح ان يصعد بى الى الجبل لكى ابحث عن فرقة العصابات ، غير انه هز رأسه بالنفى . فى تلك الاثناء ، عاد الينا العم تشن جيون عدة مرات وكذلك جاءنا الاخ وو ، الا انهما رفضا اخذى الى الجبل معهما بحجة اننى ما زلت صغيرا .

ذات يوم كررت طلبى الى العم سونغ ظنا منى اننى قد اصبحت يافعا اتمكن من اخذ الثأر لامى . الا انه هز رأسه كالعادة قائلا :

ـ لا تكن عديم الصبر يا بنى ! ففى يوم من الايام ستصبح رجلا من رجال فرقة العصابات ، ولكن الوقت لم يحن بعد ! وعندما يحين الوقت سوف يرسل الامين وو رجلا فى طلبك .

وقد مضى اكثر من عام منذ جاء الامين وو ـ بدأت اسميه بالامين وو ايضا ـ لزيارتنا ، ولم نكن نعرف اين كان .

ولما رفض العم سونغ اخذى الى الجبل قررت ان ابحث عن فرقة العصابات بنفسى . وبعد الافطار اخذت حبلا وعصا حمل مدعيا بأننى ذاهب لاجمع الحطب ، وسرت نحو الجبل .

وما اجتزت تلين من التلال حتى لاحت امامى عدة طرق . ولم اكن اعرف ابدا اى طريق اسلك . ولكى لا اضل الطريق عند العودة اخترت اوسع الطرق ، وكلما وصلت مفترق طرق سرت فى الطريق الاوسع . وجدت نفسى على قمة تل ثم فى واد . ولم اجرؤ على سؤال المارين خوفا من ان يكتشفوا مكمن فرقة العصابات . ولما ازدادت كثافة اشجار الخيزران وضخامتها على جانبى الطريق ظننت بأننى قد اقتربت من

مكاني المقصود . ثم لم يكن امامى غير دروب وعرة متعرجة تتجه الى جميع الجهات . فاصبحت فى وضع يجعلنى اضل طريقى بكل سهولة ، فقررت اخيرا ان اسير فى درب مؤد الى قمة الجبل وبدأت اضع قصبات على جانب الدرب كلما سرت بضع خطوات كعلامات تدلنى على طريق العودة .

وبعد ان تسلقت لبعض الوقت توقفت تحت ظل شجرة كانت تبدو مألوفة لدى . حقا ، ان الكهف الذى امامى هو الكهف نفسه الذى نمت فيه ذات مرة ، وكنت جالسا على تلك الصخرة القريبة منه عندما كان العم تشن جيون يصف لى كيف احرقت امى حتى الموت على يد هو هان سان . ففى هذا المكان بالضبط بكيت حتى كادت عيناى تخرجان من محجريهما . جريت الى داخل الكهف ، ووجدته خاليا ، فصعدت الى مكان اعلى لانظر حولى ، ولكن لم تشهد عيناى اى انسان . ربما يسمعنى شخص اذا ناديت ، فصرخت باعلى صوتى : " يا امين وو ! " " يا عم تشن جيون ! " ولكن لم اسمع احدا يجيبنى . اين ذهب رجال فرقة العصابات ؟ كم كنت اتمنى ان اعثر عليهم ، وكم كنت مشتاقا لأرى تلك الوجوه الباسمة ، وانضم اليهم كواحد منهم لمقاتلة الحرس الابيض !

من الواضح ان فرقة العصابات قد ذهبت لاداء مهمة القتال فلن اتمكن اليوم من العثور عليها . وفجأة وخزنى ضميرى ، فأنا لم اخبر العم سونغ بالجهة التى قصدتها ، ولا بد ان تكون غيبتى الطويلة قد اقلقته . اذن من الافضل ان اسرع فى العودة ، وابحث عن فرقة العصابات فى يوم آخر . وبالاعتماد على العلامات التى وضعتها على جانب الدرب سرت

فيه الى اسفل الجبل بلا صعوبة . كانت الشمس على وشك المغيب ، فبدأت اركض .

وعندما وصلت مفترق الطرق رأيت بعض الجنود يقتربون منى . هل جاء رجال فرقة العصابات ؟ فأسرعت راكضا نحوهم متأملا فيهم . كان بعضهم يحمل البنادق والبعض الآخر يحمل السيوف العريضة ، غير اننى لم اعرف ايا منهم . ثم لاحظت زيهم الاصفر ، فعرفت انهم من الحرس الابيض . ولما رأونى احمل الحبل وعصا الحمل لم يعيرونى اهتماما وواصلوا سيرهم الى اعلى الجبل . ولكن عندما عبر رتلهم كله تقريبا من جانبى وقع نظرى على رجل يرتدى جبة طويلة وقبعة من الصوف وبدا وجهه القبيح مألوفا لدى . وما ان تلاقت نظرتى ونظرته حتى تبينت انه هو هان سان . لن انسى مدى الحياة عينيه الشبيهتين بعينى الذئب ! وفار دمى ثرا . وعندما مر بى القى على نظرة فاحصة ، ثم استدار لى فجأة وسألنى :

ــ يا ولد ، ما اسمك ؟

كنت اتجاهل سؤاله وواصلت سيرى الى اسفل الجبل .

فصرخ :

ــ قف ! قف مكانك !

ادركت اننى لا يمكن ان اقف فركضت بسرعة . حينئذ ارتفعت الصرخات من خلفى ، ومرت طلقة قرب اذنى ، فركضت باقصى سرعة .

فى طرف القرية كان العم سونغ يبحث عنى ، فقلت له لاهثا :

ــ عاد هو هان سان ، وهو يطاردنى الآن .

ولما لاحظ العم سونغ اننى كنت منهوك القوى وضعنى على ظهره ،

وبعد ان القى نظرة سريعة الى الجبل حملنى بسرعة الى البيت . واخذ من القدر رغيفين من الارز ، وقدمهما الى ، ثم قادنى الى الفناء الخلفى ، ورفعنى الى احد الاشجار ، وامرنى :

— اسرع من هنا الى بيت العمة الثالثة ليو واختبىء هناك .

قفزت من الشجرة الى ما وراء الحائط . وعندما شعرت بالافلات من قبضة هو هان سان تنفست الصعداء ، وبدأت آكل خبزى .

لم اكد التهم واحدا من الرغيفين حتى سمعت الضجيج يتعالى من فناء العم سونغ . اصخت له ثم قفزت ذعرا ، فقد كان هو هان سان يبحث عنى . وسمعته يقول بلهجة آمر :

— قل ! اين الولد ! ؟

— خرج ليجمع الحطب ، ولم يعد بعد .

— هذا كذب ، فقد طاردناه الى هذا المكان وقد شوهدت تحمله عائدا .

— لست انا ، فأنا لم اضع قدمى خارج المنزل منذ حل المساء .

— اذن فأنت عنيد . أليس كذلك ؟

وبعدها سمعت صفعة قوية على وجه العم سونغ .

— قل الحقيقة ! من اين جاء ابن السفاح الصغير هذا ؟

— اعطانيه لاجىء قابلته على الطريق .

— وما اسم عائلته ؟

— وانغ .

— ليس وانغ بل بان ! اننى اعرف ذلك الجرو فى اى مكان اراه حتى ولو سلخ جلده . فقد عضنى ذلك العفريت الصغير !

ثم اعقب ذلك صوت لطمة اخرى .

ـ اين خبأته ؟ تكلم !

رد عليه العم سونغ بهدوء :

ـ لماذا اخبئه ؟ ان الولد ليس لصا ، ولم يرتكب اى خطأ كان .

صرخ هو هان سان :

ـ هل اسم عائلته بان ام لا ؟

ـ لقد اخبرنى والده بأن اسم عائلته وانغ ، فكيف يكون بان ؟ وبالطبع يمكنه ان يختار اى اسم عائلة يريد ، سونغ مثلا .

ـ لا تحاول خداعى .

ثم امر جنوده صارخا :

ـ فتشوا !

سمعت العم سونغ يصيح محتجا عليه :

ـ من اعطاك حقا فى ان تقتحم بيتى وتفتشه ؟ انت من قرية ليوشى ، وليس لديك سلطة على قريتنا ماوقانغ .

اطلق هو هان سان ضحكة صفراوية ، وقال :

ـ ان البلاد كلها الآن تحت سيطرة الجيش الامبراطورى اليابانى وبوسعى ان افتش اى مكان اريد .

وعندما سمعت انهم شرعوا بالتفتيش تسللت الى ما وراء قن الدجاج فى دار العمة الثالثة ليو لأختبئ هناك .

ولما فشلت محاولتهم فى العثور على ، شتم هو هان سان العم سونغ قائلا :

ـ تكلم ايها العجوز الملعون ! اين يختبىء الولد الصغير ؟

— ذهب لجمع الحطب ولم يعد بعد .

— سلم الولد ، والا فسوف نلقى عليك القبض بدلا منه !

— لماذا تلقى على القبض وانا مواطن امين ؟

— انت تخبىء قاطع الطريق .

— اى قاطع طريق ؟ انا لا افهم ما تقول .

— لنقل لك بصراحة ايها الرجل العجوز ، لقد جئنا الى الجبال لابادة قطاع الطرق . وقد هرب احدهم الى بيتك ، واذا لم تسلمه فسوف نسلمك انت الى الجيش الامبراطورى اليابانى .

قال العم سونغ بصوت مرتفع :

— ان الولد الذى تبحثون عنه قد ذهب !

— ذهب ؟ الى اين ؟

ـ قلتم انكم طاردتموه حتى اسفل الجبل ، فكيف اعرف المكان الذى دفعتموه اليه !

ـ اذا كان قد هرب هو فانك لا تستطيع الهروب .

ثم سمعت وقع خطوات ثقيلة . فهل اقدموا حقا على اعتقال العم سونغ ؟ رجعت الى الحائط مشيا على رؤوس اصابعى وصعدته ، حيث فرقت اغصان الشجرة لالقى نظرة . وكانوا بالفعل يسوقون العم سونغ الى الخارج . وحتئذ تصبب جسمى عرقا من شدة الحيرة ، فما العمل ؟ وفى هذه اللحظة قال هو هان سان فى تهديد :

ـ سلم الولد ! واذا ما اخذناك فلا يمكنك ان تعود حيا !

اجابه العم سونغ فى احتقار شديد ودون ان يلقى اليه نظرة :

ـ لقد ذهب الولد ، وسوف لا تستطيع العثور عليه !

رأيت العم سونغ يقف رافعا رأسه دون ان يرمش بعينيه . آه ! كم كان يشبه شجرة الصنوبر المهيبة التى على الجبل !

عندما رأى هو هان سان تهديداته قد فشلت وجه ضربة بعصاه الى العم سونغ وصرخ : " خذوه ! "

كنت على وشك القفز من على الحائط لانقاذ العم سونغ عندما جاءت العمة الثالثة ليو ، فأمسكت بى قائلة بصوت خفيض :

ـ اياك يا دونغ تسى ان تذهب ، ستزيد من سخطهم على العم سونغ .

عضضت على شفتى السفلى وكان قلبى على وشك الانفجار . فقد رعانى العم سونغ ست سنوات ، واليوم ولكى ينقذ حياتى اخذوه بكل هذه السهولة . وقررت ان ابحث عن الاخ وولكى ينقذه .

٤

فى مساء اليوم التالى جاء العم تشن جيون ، واخبرنى بأن العم سونغ مودع فى سجن كبير فى الحاضرة .

سألته :

ــ اين السجن ؟ اريد ان ارى العم سونغ .

قال العم تشن جيون :

ــ لا تذهب الى هناك ، انه المكان الذى يسجن فيه الحرس الابيض الناس الطيبين .

ــ لا يمكن ان نترك العم سونغ هناك . علينا ان نسارع الى انقاذه .

ــ لا تنزعج ، سيجد الامين وو طريقة لانقاذه .

ثم اضاف قائلا :

ــ منذ غزا اليابانيون مناطقنا استسلم هو هان سان وجماعته اليهم واصبحوا عملاء لهم .

ــ اذن ، اصبح رجال الحرس الابيض عملاء للعدو .

واخيرا، طلب الى العم تشن جيون ان انتظر قدوم الامين ووعند اسفل الجبل الشمالى فى المساء التالى ، لأن الامين وو يريد ان يجد لى مكانا آخر ابقى فيه .

كان القلق على العم سونغ يحز فى قلبى ، فمكث معى العم تشن جيون حتى منتصف الليل .

صحوت صبيحة اليوم التالى على اول صيحة للديك ، ولم استطع معاودة النوم ، فالقيت سترتى على كتفى وجلست متكئا على السرير .

كانت الغرفة حالكة كسواد الحبر ، وبدأت اسبح فى بحر من التفكير . وقد قفزت الى مخيلتى صورة والدى ، وهو يحمل علما احمر ضخما مندفعا الى العدو ، وطلقات الرصاص والصيحات المدوية تترامى الى مسمعى . . .

وعندما صاح الديك مرة ثانية نهضت وارتديت ملابسى . وظلت الغرفة مظلمة وطارت افكارى نحو امى . فتخيلت اننى رأيتها تبتسم لى ، ثم رأيتها تتجه الى ألسنة النيران بشجاعة ، وتصرخ : " لا تخافوا ايها المواطنون ! ايام الحرس الابيض معدودة . . . "

بدأ الصبح ينبلج عندما ارسل الديك صيحته الثالثة . جلست على احد المقاعد الصغيرة مفكرا فى العم سونغ الذى توجه الى السجن رافعا رأسه شامخا . . .

يا والدى وامى ، يا عم سونغ ! انكم لم تظهروا الضعف ولم تحنوا رؤوسكم امام حراب العدو . سوف اقتدى بكم ! ثم تذكرت الاخ وو وغيره من رجال فرقة العصابات . يا لها من حياة قاسية يعيشونها ! انهم يتسلقون الجبال ويسكنون الكهوف ولا يجدون ما يأكلونه غير البطاطا . نعم ، يجب الا اثقل كواهلهم بمزيد من المتاعب . فقد بلغت الثالثة عشرة من عمرى وعلى ان اكون متفهما لاشياء كثيرة. كم اتمنى ان انمو واترعرع بسرعة حتى ابلغ الخامسة عشرة ، وعندها سأكون كبيرا قادرا على حمل البندقية وعلى الجرى بسرعة ، وسأقاتل مع رجال فرقة العصابات الحرس الابيض والغزاة اليابانيين . وبينما كنت استرسل فى هذا التفكير بدأت كل الديوك قريبها وبعيدها تصيح ، وانتشر الضوء فى الغرفة ، فقمت ارتب امتعتى .

وضعت اشياء العم سونغ مع بعضها بعضا فى صندوق خيزرانى . اما ممتلكاتى فقد ربطتها فى صرة صغيرة. وعندئذ جاءت العمة الثالثة ليو وبعض الجيران ليودعونى بعد ان علموا بمغادرتى . وقدم بعضهم لى اشياء من الطعام . فما اعظم شكرى لهم .لقد تذكرت اننى عشت معهم وترعرعت بينهم طوال ست سنوات خلت كانوا يعاملوننى خلالها وكأننى واحد منهم ! فودعتهم شاكرا ورجوتهم ان ينظروا الى الكوخ بعين الرعاية . ثم القيت نظرة على الفناء وقفلت الباب وحملت صرتى وبدأت اصعد الى الجبل .

كان الوقت ربيعا. فاخضرت الاشجار كلها على الجبال ، واخذ الخيزران يخرج فريعاته الجديدة ، وكانت الازهار تتفتح والطيور تحلق فى السماء والنهيرات تخر فى كل واد . ما اجمل هذه المناظر ! ليت هذا المكان ظل منطقة محررة ، فعندها كنت سأظل حرا كهذه الطيور ومرحا كتلك النهيرات . ولكن الآن ، فقد مد هو هان سان مخالبه الشريرة ليقبض على ، مما جعلنى عاجزا عن البقاء فى بيت العم سونغ . " هو هان سان ، ايها الكلب الابيض ! لسوف اصفين حسابى معكم جميعا ذات يوم ! "

انتظرت طوال ذلك اليوم فى الجبال . ومع حلول الاصيل جاء ميعاد مقابلة الاخ وو ، فوقفت لألقى نظرة اخيرة على كوخ العم سونغ . سوف اعود لزيارتك يا عم سونغ بعد ان تخرج من السجن ! كادت الشمس تغيب واصبح الجو باردا . فحللت صرتى واخرجت سترة امى القديمة . وعندما شاهدتها شعرت بأن امى قريبة منى . وتحسست بأصابعى الطرف السفلى من السترة ، لأننى قد اخفيت فى داخله تلك النجمة الحمراء التى اعطانيها ابى ، بدلا من اخفائها فى سترتى الصغيرة

التى لم تعد تناسب حجمى . وضعت سترة امى على كتفى ورحت انحدر الى اسفل الجبل .

قابلت الاخ وو والعم تشن جيون عند اسفل الجبل الشمالى . وكنت سعيدا بمقابلتهما الى حد جعلنى امسك بيد الاخ وو بين يدى ضاغطا عليها لفترة طويلة . واخيرا سألت الاخ وو :

– هل تعرف اين والدى ؟

– فى يانآن .

– فى يانآن ؟

– نعم ، لقد وصلوا الى يانآن مع الرئيس ماو .

ارتسمت ابتسامة مشرقة على وجه الاخ وو عندما ذكر ذلك . ثم واصل حديثه قائلا :

– وبعد المسيرة الكبرى لمسافة ٢٥ الف لى ، وصل والدك الى يانآن . انهم الآن تحت قيادة الرئيس ماو يقاتلون الغزاة اليابانيين .

وفى الحال مرت فى مخيلتى صور كثيرة : الطواف بالطاغية المحلى ،

وتقسيم الاراضى على الفلاحين ، والاحتشادات الجماهيرية للنضال ضد ملاك الاراضى ، وانضمام والدى الى الجيش الاحمر فى المسيرة الكبرى ، واداء امى اليمين رافعة قبضتها ، ونضال رجال فرقة العصابات ضد العدو . " هذه جميعها جزء من الثورة ! " خاطبت نفسى ، " وكلها انجزت تحت قيادة الرئيس ماو ! واليوم يقود الرئيس ماو ايضا الجيش الاحمر فى قتال الغزاة اليابانيين لتحقيق اشياء اخرى كثيرة لم افهمها حتى الآن . ايها الرئيس ماو ، عندما كنت هنا ، كانت الاعلام الحمراء ترفرف فى انحاء قريتى ليوشى وماوقانغ ، وكان الفلاحون يغنون . الآن وصلت الى ياناآن فلا بد ان تكون مكانا رائعا ! " حينما فكرت فى هذا قلت للاخ وو :

— انى ايضا اود الذهاب الى ياناآن لاكون مع الرئيس ماو .

ضحك الاخ وو قائلا :

— وكذلك اريد ان اذهب اليها ، ولكن ليس الآن . انها بعيدة جدا .

— اين تقع ياناآن ؟

— فى الشمال .

التفت لانظر الى تلك الجهة ، حيث كانت السماء مصبوغة بحمرة السحب المتوردة . ان ذلك المكان هو الذى يمكث فيه والدى مع الرئيس ماو . كم تمنيت ان اكون طائرا احلق الى هناك !

قال الاخ وو بعد صمت قصير :

— يا اخى دونغ تسى ، لنتحدث عن الاشياء المستعجلة فى الوقت الحاضر. ان هو هان سان يترصدك فى كل مكان ، فلن تكون فى مأمن

اذا بقيت هنا فى قرية ماوقانغ . لقد وجدت لك مكانا فى المدينة . فما رأيك فى ان تعمل تحت التمرين فى حانوت للارز ؟

" تحت التمرين فى المدينة ؟ " هززت رأسى رافضا :

ـ كلا ! لا اذهب !

خلال هذه السنوات الست التى مكثت فيها مع العم سونغ ، لم اذهب الى المدينة سوى مرتين . ورأيت الصبيان المتمرنين فى الحوانيت ، وكلهم لم يبلغوا الخامسة عشرة من عمرهم بعد ، واقفين وراء طاولات البيع ، يبدون فاقدى الحيوية كأنهم طيور مسجونة فى الاقفاص !

اقنعنى الاخ وو وقال :

ـ من الافضل ان تذهب يا اخى ، ان هو هان سان قد عرف انك هنا ، فعليك ان تهاجر الى مكان آخر .

قلت متذمرا :

ـ لن اذهب ! سأبقى مع رجال فرقة العصابات حتى ولو مت فى هذا المكان .

ـ هذا لا يجوز يا اخى .

قال لى الاخ وو بصبر :

ـ هل تعرف لماذا اريدك ان تكون تحت التمرين ؟ لانك ستجد هناك امنا اكثر . ولدينا رفيق فى المدينة يمكنه ان يعتنى بك .

ولما ادرك اننى ظللت مصرا على عدم الذهاب اردف قائلا :

ـ انك خلف الثورة ، فمن واجب منظمة الحزب ان تحميك جيدا . ولك ان تنضم الى صفوف المقاتلين حينما تكبر .

ان كلماته هذه قد اقنعتنى . فأومأت برأسى علامة الموافقة .

في صباح اليوم التالى صحبنى العم تشن جيون الى المدينة وهو متنكر فى زى بائع حطب متجول . وذهبنا الى السيد تشاو احد نحاتى الاختام ، فتحدث اليه العم تشن جيون بشىء ما ثم تركنى ذاهبا .

ومكثت فى بيت العم تشاو لمدة يومين ، وفى اليوم الثالث اخبرنى بأنه سيصطحبنى الى حانوت ماويوان للارز فى الشارع الجنوبى ، حيث اعمل تحت التمرين . اخذت صرتى الصغيرة وذهبت معه . ولم نلبث ان وصلنا الى حانوت ارز ذى ثلاث واجهات . اشار العم تشاو الى لافتة افقية مكتوب عليها : حانوت ماويوان للارز . وقال : " ها نحن قد وصلنا . " وعندها سمعت سعالا ، ثم خرج منه بحتر ذو رأس كبير . قال العم تشاو مبتسما :

ـ يا صاحب الحانوت شن ، لقد احضرت لك هذا الولد .

نظر الى صاحب الحانوت البدين من رأسى الى اخمص قدمى ، ثم تمتم قائلا :

ـ انه ريفى ممعن فى ريفيته حقا .

اوضح العم تشاو :

— هذا الولد قريب لى ، جاء من الريف ، الا انه امين جدا يمكن الاعتماد عليه .

" حسنا ، ادخل ! " قال صاحب الحانوت شن وهو يشير لى بالدخول . ثم دخلنا غرفة علق على بابها ستار . كان اول شئ سأله صاحب الحانوت للعم تشاو هو " هل احضرت نقودا كرهينة ؟ "

سحب العم تشاو حزمة من الاوراق النقدية من جيبه قائلا :

— هذا نصفها والباقى سيدفع فى الشهر القادم .

اومأ صاحب الحانوت برأسه موافقا . ثم اضاف :

— ولكن لا بد من احضاره مع بداية الشهر .

اجاب العم تشاو :

— لا شك فى ذلك .

لقد اصابتنى لذلك الامر دهشة عظيمة . فلماذا يجب على صبى متمرن ان يقدم نقودا لصاحب الحانوت اولا ؟ وقبل ان اجد الجواب سألنى صاحب الحانوت شن بصورة مباغتة :

— ما اسمك ؟

— قوه تشن شان .

ولحسن الحظ كان العم تشاو قد اخبرنى ان استعمل هذا الاسم .

— هل لك اى لقب ؟

— دونغ تسى .

— من الاحسن ان نناديك دونغ تسى .

ثم سعل وواصل حديثه مشيرا الى كومة من الاوراق النقدية على الطاولة :

ـ أ ترى هذا ؟ من الآن فصاعدا تعمل هنا . فلا تأخذ ما ليس لك . وان سرقت اى شىء تدفع ثمنه من هذه النقود .

اجتاحنى غضب عظيم لادعاء هذا الشخص بأننى لص . فما الذى سرقته فى حياتى ؟!

اردف صاحب الحانوت قائلا :

ـ عليك ان تبقى فى هذه المهنة ولا تتركها خلال ثلاث سنوات مستمرة ، والا ، فان الرهينة سوف تصادر .

قال العم تشاو وهو يتكلف الابتسامة :

ـ لن يفعل ذلك . ان هذا الولد قادر على القيام بأى عمل شاق . فكيف يترك العمل ؟

ـ هذا قانوننا . واذا عمل الولد جيدا فسوف تعاد النقود عندما ينتهى العقد بعد ثلاث سنوات .

هكذا ختم صاحب الحانوت حديثه وهو يسعل مرة اخرى .

كم كنت اريد ان اغادر هذا المكان فورا . وقلت فى نفسى : كيف استطاع الاخ وو وغيره من رجال فرقة العصابات تقديم هذه الكمية من النقود لهذا الرجل البدين من اجلى ، وهم يأكلون النزر اليسير ، ويلبسون الملابس البسيطة ؟ نظرت الى العم تشاو فابتسم لى . فادركت من ابتسامته ونظراته انه يريد لى البقاء ، وان رفضى سيجعله فى وضع حرج للغاية . ولهذا السبب سيطرت على عواطفى ولم اقل شيئا .

دس صاحب الحانوت البدين تلك النقود فى جيبه . ثم امرنى بأن افتح صرتى ليفتشها . وبعد ذلك قال وهو يسعل مرة اخرى :

ـ الآن اذهب وقدم نفسك الى ربة البيت .

" ربة البيت ؟ ما هذا ؟ " وقفت هنالك جامدا ورأسى فى دوار كامل .

" لنذهب ونقابلها . " سمعت العم تشاو يقول ، فاضطررت الى متابعة صاحب الحانوت البدين والعم تشاو الى الفناء الخلفى من المنزل .

قطعنا ممرا ضيقا حتى وصلنا الى الفناء الخلفى الذى به غرف واسعة عالية فى الناحية الشمالية والشرقية والغربية . وبعدها اقتادنا صاحب الحانوت البدين الى غرفة فى الناحية الشرقية حيث رأيت ثلاثة اشخاص : امرأة طويلة نحيفة فى الثلاثين من عمرها تقريبا ، ذات وجه طويل بارز العظم الوجنى ، واثنتان من اسنانها الامامية الكبيرة ناتئتان من فمها ذى الشفتين الكبيرتين الرفيعتين . وعجوز شمطاء تبلغ اكثر من الستين ، تمسك بمكنسة قصيرة المقبض وتحنى ظهرها ، تقوم بكنس الغرفة . وجلست على مقعد مستطيل فتاة فى حوالى الثانية عشرة من عمرها ، شاحبة الوجه حولاء العينين ولها انف مدبب . كانت الفتاة تلعق قطعة حلوى مظهرة اسنانها المسوسة البالية من وقت لآخر . وعلقت على الحائط الاوسط صورة كبيرة لآله المال ، ووضع على الطاولة الطويلة شمعدانان ومبخرة .

سعل صاحب الحانوت البدين سعلتين اخريين بعد ان دخل الغرفة ، واشار الى تلك المرأة النحيفة قائلا : " هذه سيدتك . " نظرت اليها ولم اقل شيئا ، بينما اشاحت بوجهها عنى وجلست فى الطرف الآخر من الغرفة . والشخص الثانى الذى قدمه الى هو الفتاة التى كانت تلعق الحلوى . " هذه بنتى . " قال صاحب الحانوت . ولم انبس

ببنت شفة للمرة الثانية. وشعرت بالضيق ازاء هؤلاء الناس الباردين الكريهين. وفكرت مرة ثانية فى المغادرة ، ولكن عندما نظرت الى العم تشاو التفت هو الى صاحب الحانوت وقال له مبتسما : " هل ستأخذ الولد ليقابل موظفى الحانوت الآخرين ؟ " قال السمين: " حسن ، لنذهب . "

وتبعناه الى داخل الحانوت . كان خلف طاولة البيع ستة اشخاص : المدير تشيان والمحاسب فنغ والمساعدان ما وتشو ، واثنان من الصبيان المتمرنين ، والاكبر اسمه وانغ قن شنغ والثانى ليو لاى تسى . قدمنى العم تشاو اليهم بصفتى متمرنا جديدا وطلب منهم حسن معاملتى ، ثم اوصانى بكلمات . وعندما اكمل كل هذه الاجراءات غادر المكان .

شعرت بدوار مما شاهدته فى حانوت الارز من دفع الرهن ، وتفتيش صرتى ، ومقابلة المرأة ربة البيت . . . ماذا يعنى كل ذلك ؟ شعرت بأن عبئا ثقيلا ضغط على صدرى .

وقفت خلف الطاولة والناس يأتون ويذهبون . ولم اشاهد فى قريتى مثل هذا العدد الكبير من الناس . كانوا يحضرون واحدا بعد الآخر لشراء الارز ويدفعون ثمنه ويخرجون . وكانت الامور تجرى على هذا المنوال مرارا وتكرارا . ولكى لا اعترض طريق اى انسان ، انزويت الى ركن ومكثت هناك ارقبهم .

خيم الظلام ، وقفلت ابواب الحانوت الخشبية . وذهب الموظفون للنوم . وبعد ذلك امكننى ان افرش فراشى – قطعتين من اكياس الارز الفارغة – على الارض وراء الطاولة كما فعل الصبيان الآخران . وعندما استلقيت على الارض الخشبية الصلبة انسالت الدموع من عينى رغما عنى . تذكرت قريتى ليوشى التى كانت تحكمها حكومة العمال

والفلاحين الديمقراطية حيث لم يكن الفقراء مضطهدين . كما تذكرت ما قاله والدى لامى قبل ان ينخرط فى المسيرة الكبرى ، حول الايام الجميلة القادمة التى يتحرر فيها فقراء العالم جميعا وينتهى عهد الظلم والاستغلال . . . ولكن الآن وفى هذا المكان اصبحت اعانى الاضطهاد والاستغلال ! غاص قلبى بين ضلوعى .

اضطررت الى ان اخدم كل يوم صاحب الحانوت والمدير والباقين ، وان اخدم تلك المرأة النحيفة الطويلة ايضا . كانت تناديني دائما فى الفناء الخلفى بصوتها العالى الزاعق البغيض مثلما المرأة بغيضة ايضا . "يا دونغ تسى ، اذهب واحضر لى علبة من السجائر ! " "يا دونغ تسى ، اذهب واحضر بعض الحلوى لابنتى ! " كانت ابنتها اكولة ، تمتص الحلوى او تمضغ شيئا ما طوال يومها . وكلما ارادت المزيد ارسلت لاحضاره . واحيانا كنت اشعر بأننى سوف انفجر من الغضب . انت ايضا تمتلكين القدمين ، فلم لا تذهبين بنفسك ؟ كاد دمى يغلى فى عروقى . كم تمنيت ان ينهض الناس فى المدينة ثائرين كما فعلنا فى قرية ليوشى ! لتندلع الثورة ! ولنرى ما اذا كنت تستطيعين البقاء فى منزلك والحصول على ما تحتاجين اليه دون ان تعملى !

ولما لم يعد بوسعى الاحتمال ذهبت لمقابلة العم تشاو ذات يوم ، وقلت له :

ــ ارجوك ان تسمح لى بالعودة الى قريتى ، لا استطيع تعود الحياة هنا .

ابتسم العم تشاو بحنان وطلب منى ان اجلس بجانبه ، وقال :

ــ ان هو هان سان يبحث عنك فى كل مكان ، وليس من المأمون

ان تعود !

ولما احس بأننى لست مقتنعا ، واصل حديثه :

ـ حقا انك لتتحمل اشياء كريهة كثيرة لدى مكوثك فى حانوت الارز ، الا انه مكان أكثر امنا ، فأنت هنا لا تجذب الانتباه .

ان ما قاله العم تشاو حقيقة . لقد كان هو هان سان واتباعه لا يتركون فردا من اهل رجال الجيش الاحمر دون ان يقضوا عليه .

واضاف العم تشاو قائلا :

ـ بوسعك ان تترك الحانوت عندما تتحسن الظروف .

قلت :

ـ ان ما اسمعه فى الحانوت كل يوم هو كيف يربحون ، لا شىء غير ذلك .

قاطعنى العم تشاو وقال :

ـ آه ، ذكرت شيئا . . . لا تضع وقتك فى حانوت الارز . عليك ان تقرأ .

واصطحبنى الى غرفة داخلية وقدم لى مجلة قديمة اخذها من تحت فرش السرير .

ـ هذه مجلة . خذها معك واقرأها فى المساء . وستجد فيها مواضيع كثيرة حول الثورة .

قلت لنفسى : " يجب الا اتهاون بهذه المجلة القديمة الخالية من الغلاف حتى لا يراها انسان ما . " فدسستها فى جيب داخلى .

وقبل ان اغادر المكان اخبرنى العم تشاو مرة اخرى :

ـ الوقت الذى ستمكثه فى حانوت الارز لن يكون طويلا جدا .

وبوسعك ان تتركه حالما يكون الوضع مؤاتيا .

عرفت ان هذا ما قررته منظمة الحزب ، فعدت بالمجلة مرتاحا .

وفى الحانوت ، كانت علاقتى مع الصبيين المتمرنين الآخرين جيدة ، ولا سيما مع ليو لاى تسى الذى ينحدر ايضا من عائلة فقيرة فى احدى القرى التى شهدت فى تاريخها الثورة . وعندما تحدثت معه عن الثورة سريا ، تحركت فى نفسه عواطف حماسية . اما وانغ فهو طيب القلب ايضا ، الا انه كلما افترشنا اكياس الارز الفارغة على ارض الحانوت سقط نائما للحظة التى استلقى بها . وفى كل ليلة تقريبا ، كنت اقرأ مع ليو لاى تسى على الضوء الخافت المجلة التى قدمها لنا العم تشاو .

وكلما ازداد بنا الاضطهاد تحرقنا شوقا الى الثورة التى من شأنها ان توسع آفاقنا وتنير قلوبنا . فى المساء تحدثت مع ليو لاى تسى

بصوت خافت عما تفهمناه حول الثورة ، كما قرأنا باهتمام كبير الابيات التالية فى المجلة :

لينظر كل فرد ، لينظر ،
فليفكر كل واحد ، فليفكر ،
كيف تظهر هذه الامور :
ملاك الاراضى لا يؤدون عملا .
الا ان مخازنهم تفيض بالحبوب .
الاغنياء متسكعون ومتبطلون ،
الا انهم يصبحون ممتلئى الاجسام لكثرة ما يأكلون .
والعمال والفلاحون يكدحون ويعرقون ،
ولكنهم لا يجدون ما يكفى لسد الرمق ،
فلا ملابس تقيهم من البرد ،
ولا سقف يغطى رؤوسهم .
لينظر كل فرد ، لينظر ،
فليفكر كل واحد ، فليفكر ،
الا ينبغى تغيير هذه الاحوال ؟!

شع الضوء الخافت على وجهينا بينما كنا جنبا الى جنب نتشاكى بغضب حياتنا المؤلمة فى حانوت الارز ، لقد كنا دائما نتلقى معاملة رديئة .

حقدنا على الاضطهاد والذل ولكنهما جاثمان على صدرينا بثقلهما كله .

ذات يوم ممطر ، نادتنى تلك المرأة النحيفة بصوتها العالى الزاعق

المزعج الى الفناء الخلفى ، وامرتنى بأن آخذ المبولة الى دكان التصليح ، وان اشترى فى الوقت نفسه بعض الحلوى لبنتها . كنت مبتلا بالمطر عندما عدت . ووقتها ، ارادت ابنتها قضاء الحاجة ، الا انها فضلت ان تقضى حاجتها على طست بدلا من الذهاب تحت المطر الى المرحاض خارج الغرفة . وهكذا امرتنى تلك المرأة ان افرغ الطست فى المرحاض وانظفه ! حينئذ شعرت بأن دمى قد اندفق الى رأسى دفعة واحدة ، فخرجت من الغرفة حفظا لكرامتى ، واتجهت فورا الى الامام حيث الحانوت .

كانت قطرات المطر تتساقط من ثيابى ، وكنت ارتجف من البرد ، غير اننى وقفت صامتا جامدا عن الحركة ، دون مبالاة بقول ليو لاى تسى الذى نصحنى بأن استبدل ملابسى . وفى هذا الوقت جاءت تلك المرأة تصرخ ، وبدت وكأنها تهيأت لتلتهمنى ، وثارت ثائرتها امام زوجها . ولما عرف صاحب الحانوت ما حدث ، امرنى بأن افرغ الطست ، فرفضت ايضا . وكان على وشك ان يضربنى عندما جاءت الخادمة العجوز لى لتقول : " لا تضربه ، قد اديت تلك المهمة . " عندما سمعت المرأة النحيفة كلامها انفجرت بالغضب ، وصاحت فى وجه الخادمة مسعورة : " من الذى امرك بأن تفرغيه ؟ انى امرته هو بذلك . سأعلمه كيف يطيعنى ! "

عندئذ تقدم صاحب الحانوت منى مرة اخرى ليضربنى ، الا ان الموظفين منعوه عن ذلك .

ومع ذلك لم تشأ تلك المرأة الطويلة النحيلة ان تتركنى ، فصرخت بأنه لا بد من انزال العقاب بى عن طريق الركوع . وقالت غاضبة :

" لم اشاهد فى حياتى صبيا متمرنا مثل هذا ! "

" اذهب الى هناك ، واركع ! " امرنى صاحب الحانوت مهددا ، "واضافة الى ذلك لن يقدم لك عشاء اليوم ! "

لم اعد ارتجف . كنت غاضبا . ولكننى رابط الجأش ، فاندفعت خارجا الى المخزن فى المؤخرة ، ووقفت هناك ، وكانت صرخات صاحب الحانوت " اركع ! اركع ! " تطرق اذنى ، ولكن لم اعره اهتماما . كان المطر يتساقط بغزارة وصاحب الحانوت البدين لم يود ان يتعرض للمطر . ولهذا فقد اكتفى بالصراخ . واخيرا اغلقت الباب بعنف ، فلم اعد اسمع الا صوت المطر المدرار .

وقفت عند النافذة انظر الى المطر المنهمر ، وبدأت اشعر بالبرد وانا فى ملابسى المبتلة . ولكن اشتعلت نيران الغضب والكراهية فى نفسى ازاء هؤلاء الناس — صاحب الحانوت البدين وزوجته النحيفة ... فقد كانوا يفعلون بى ما يشاؤون ، يحتقروننى ، ويعاقبوننى باكراهى على الركوع ، كأن ذلك من حقهم . فأى نوع من انواع الحياة هذا ؟ كم اود ان اشعل نارا لاحراق هذه الاشياء وامثالها كليا !

٥

كنا نتحرق شوقا الى الثورة ، الا ان التيار الثورى لم يكتسح حاضرة المحافظة هذه بعد . وكنا نترقب وصول الجيش الاحمر ، ولكنه ، تبعا لما قاله العم تشاو ، كان يقاتل الغزاة اليابانيين فى الجبهة الامامية . وهكذا بقيت فى حانوت الارز موزع النفس بين الترقب

والشوق لاكثر من عام ...

حل ربيع آخر . وفى هذا الربيع كانت الايام اقسى على الفقراء من سابقاتها . فقد اثر قحط العام السابق فى محصول الارز . ففى الريف لم يكن للفلاحين الفقراء ما يأكلونه من الارز . اما فى المدن فلم يكن للفقراء نقود يبتاعون بها الارز ، اذ ان اسعار الارز كانت ترتفع يوميا .

ولكن مخزن صاحب الحانوت شن كان مملوءا بالارز .

ذات مساء ، دعانى ليو لاى تسى لاذهب الى الباب الخلفى من الحانوت ، المفتوح على احد الانهار حيث رسا قارب ، فشاهدت وانغ قن شنغ والمساعد تشو ينقلان الاكياس من القارب الى داخل الحانوت . طلب ليو لاى تسى الى ان امد يد المساعدة ، فحملت معه كيسا . كان هذا الكيس ثقيلا جدا ، اثقل من كيس عادى من الارز ، فسألت ليو لاى تسى وانا اتحسس الكيس بيدى :

ـ ماذا بداخل هذا الكيس ؟

هز رأسه كأنما يطلب منى الا اسأل . فحملنا هذا الكيس الثقيل الى الفناء الخلفى للحانوت . وبعدها حملنا عددا من امثال هذا الكيس ووضعناها كلها خارج المخزن . فدفعنى الفضول لأن افتح احد هذه الاكياس فى غفلة عن الآخرين واملأ قبضتى من محتوياته . فاذا هو رمل ، لا ارز ! فسألت ليو لاى تسى عما يفعلون به ، فقال :

ـ انتظر وسوف ترى بنفسك .

كنا عادة آخر من يترك العمل ، لأننا تحت التمرين . ولكن

امرنا صاحب الحانوت شن فى ذلك المساء بأن نترك العمل وننام مبكرين . بما اننى اردت ان اعرف ماذا يجرى ، ظللت صاحيا . وبعد هنيهة رأيت المدير تشيان والمساعدين الاثنين يذهبون نحو المخزن . وفى هذا الوقت بالذات وكزنى ليو لاى تسى وكزة ، فقمنا وتسللنا الى مكان قريب من المخزن . كان النور فيه مشعلا ، وكان صاحب الحانوت شن والمدير تشيان يفرغان هناك كيسا من الرمل فوق كومة من الارز ، والرجلان الآخران يمزجان الارز بمذراتين . اذن فهذا هو الامر ! فقد كانوا يمزجون الارز بالرمل ويبيعونه للناس ! يا لك من مصاص للدماء يا صاحب الحانوت شن ! أو لم يكفك ما اعتصرته من دماء الناس؟ وددت الاقتراب لأتبين اكثر ، الا ان ليو لاى تسى جذبنى الى الخلف ، فعدنا واضطجعنا مرة اخرى . ولكننى بقيت مستيقظا لمدة طويلة افكر كيف يمكننى ان اواصل العمل عند هذه المخلوقات التى لا ضمير لها !

وفى ظهر اليوم التالى ، عندما خرجت لاشترى بعض الحلوى لابنة صاحب الحانوت شن ، ذهبت لمقابلة العم تشاو . كان ينحت ختما ، وحينما رآنى نهض واقفا وولجنا الى الداخل .

سألنى وهو يبتسم :

ــ هل تعودت الآن على الحياة فى حانوت الارز ؟

هززت رأسى نفيا :

ــ كلا ! كلا ! انهم كثيرا ما يدبرون خدعا قذرة .

ــ اى خدع قذرة ؟

ــ انهم يمزجون الارز بالرمل فى منتصف الليل !

ثم اخبرت العم تشاو بما حدث فى الليلة السابقة . قال العم تشاو باستياء :

ــ ان ملاك الاراضى والرأسماليين هم اقسى الناس فى العالم . ولا يترددون لحظة عن القيام بأى عمل سىء اذا كان يفيدهم .

قلت :

ــ لا امكث اكثر مما مكثت مع هؤلاء الناس السيئين ، ولا اريد ان اعمل باستمرار فى حانوت الارز . ارسلنى الى فرقة العصابات ، لن اكون عبئا عليها ، لأننى قد جاوزت الرابعة عشرة من عمرى .

ذرع العم تشاو الغرفة جيئة وذهابا لبعض الوقت ، ثم هز رأسه قائلا :

ــ ان الوضع الثورى يتطور بصورة سريعة الآن . ومعظم رجال فرقة العصابات قد ذهبوا الى الجبهة الامامية لمقاتلة الغزاة اليابانيين . . .

ولما كنت مدركا ان رغبتى لا يمكن تحقيقها فى ذلك الوقت فكرت فى طريقة اخرى لترك حانوت الارز ، فقلت :

ــ يا عم تشاو ، علمنى نحت الاختام ، وسوف اتعلم منك هذه الصنعة .

اجاب العم تشاو وعلى ثغره ابتسامة :

ــ بيد اننى سوف اترك هذا المكان فى القريب العاجل .

ــ ستغادر هذا المكان ؟

ــ نعم . لقد قبلت مهمة جديدة ، لا بد ان اذهب .

ــ سأذهب معك .

ــ كلا ! لا استطيع ان اصطحبك .

واضاف وهو يربت على كتفى :

– انه آمن لك ان تبقى هنا . والى جانب ذلك ، يمكنك ان تخبر بنفسك هذا المجتمع اللئيم الذى ينضح شرا . سوف اسمح لك بمغادرة هذا المكان والانخراط فى الجيش عندما يكون ذلك ممكنا .

ثم قدم لى زوجا من الاحذية وقال :

– خذ هذا ، اشتريته لك .

اخذت الحذاء ، وشعرت بدفء يدب فى قلبى . فى كل مكان داخل صفوف الثورة يمكن للمرء ان يجد اهله كما لو انه فى بيته !

ثم مد العم تشاو يده تحت اللحاف واخرج كتابا وهو يقول :

– هاك شيئا آخر تقرأه فى وقت فراغك عند المساء . زد معرفتك وتعلم المزيد عن الثورة . وسينفعك هذا كثيرا فى المستقبل .

تناولت الكتاب وخبأته تحت سترتى وشكرت العم تشاو ، ثم عدت الى حانوت الارز .

وما ان جاوزت عتبة باب الحانوت حتى تناهت الى مسمعى اصوات من الداخل . فامعنت النظر ورأيت رئيس مركز الشرطة سون يتحدث الى صاحب الحانوت شن :

– يا سيد شن ، لقد خزنت مثل هذه الكمية الكبيرة من الارز وما زلت ترفض بيعه ، فماذا سيحدث اذا كان سكان المدينة يريدون شراءه ولا يجدونه ؟

رد عليه شن :

– لا يهمنى هذا ! ان ثمن الارز يرتفع باستمرار ، وانا انتظر

احسن الاسعار .

قال رئيس الشرطة وهو يضيق عينيه :

– انت تشتغل بالمضاربة كما تعلم ، واذا عرف الناس هذا واثاروا الشغب فقد تصعب تهدئته .

قال شن البدين وهو يوجه نظرة استعطاف الى رئيس الشرطة :

– فى هذه الحالة سوف اعتمد على عونك . وطالما انت صديق لى ، فمما اخاف اذن ؟

– تكدس ثروة ، واصبح انا سمسارا ، أليس كذلك ؟ ها ، ها ، ها ! !

– سوف لا انساك ...

عندها اخرج شن حزمة من الاوراق النقدية ووضعها فى يد رئيس الشرطة ... ثم ضحك الاثنان بصوت اجش .

وفجأة طرق سمعى صوت بكاء طفل من الجهة الامامية للحانوت ، فهرعت الى هناك ورأيت امرأة ترتدى ملابس ممزقة وهى تحمل طفلا باحدى ذراعيها وفى الاخرى سلة خيزرانية . وعلى الطاولة ورقتان من العملة ذات الفئة الصغيرة ، وكانت المرأة تستجدى الرجال خلف الطاولة ليبيعوها شيئا من الارز :

– ارجوكم ، قليلا من الارز فقط . لم نأكل شيئا من الطعام منذ يومين . ارحموا هذا الطفل . وها انتم ترونه يبكى من شدة الجوع .

كان الطفل الذى يبلغ من العمر عامين او ثلاثة ، ضعيفا هزيلا ، ورأسه متدل يبدو كبيرا على جسمه الجائع ، وعيناه كبيرتان فى وجهه العظمى الصغير .

قال المدير تشيان كاذبا :

ـ ليس هنا ما استطيع فعله ، فالارز قد بيع ولم تبق منه حبة واحدة . من الافضل ان تبحثى فى حانوت آخر .

الا ان المرأة لم تذهب . وفى تلك اللحظة خرج صاحب الحانوت شن . وعندما شاهد المرأة المسكينة وابنها الذى كان لا يتوقف عن البكاء ، حملق فيها غاضبا وصرخ فى وجهها :

ـ لماذا تزعقين وتثيرين كل هذه الضجة فى حانوتى ؟ لم يمت احد هنا . هيا اخرجى !

ـ ان الطفل جائع يا صاحب الحانوت . بع لنا قليلا من الارز فقط .

هكذا كانت المرأة تتوسل ، بينما كانت تهدىء الطفل عن البكاء .

القى شن بالورقتين النقديتين على الارض وصاح :

ـ اخرجى من هنا ! لقد بيع كل الارز منذ زمن .

ثم سار نحو الداخل .

انحنت المرأة تلتقط الورقتين ، وبعد ذلك حدقت الى الرجال الواقفين وراء الطاولة بنظرة خالية من التعبير ، ثم ابتعدت ببطء عن الحانوت ، والطفل ظل يولول على ذراعها . وكانت النظرة التى وجهتها الى من عينيها الغائمتين بالدموع تشبه سكينا غرس فى قلبى مما سبب لى الما عظيما .

ذهبت المرأة ، بيد ان بكاء الطفل ظل يتردد فى اذنى . وبالطبع ليس بالامر السار ان يكون المرء جائعا . فلعنت فى سرى صاحب

الحانوت شن الذى لا يعبأ بموت الناس جوعا بينما يحتكر الارز انتظارا لارتفاع سعره !

كلما قلت كمية الارز المعروضة للبيع ، ازداد عدد الذين يرغبون فى الشراء . ففى كل صباح ، حالما كان الحانوت يفتح ابوابه كانت هناك صفوف طويلة من الناس ينتظرون فى الخارج . امرنا صاحب الحانوت شن بكل بساطة ان نقول " لا يوجد ارز الآن " ، لذا كنا نقابل دائما بنظرات الغضب ، وحتى بعض الناس استخدموا الفاظا عنيفة فى بعض الاحيان .

بعد ظهر احد الايام ، امرنا نحن الصبية الثلاثة بالذهاب الى باب الحانوت الخلفى لنفرغ قاربا محملا بالارز . وبينما انا وليو لاى تسى نحمل كيسا من اكياس الارز اذ سمعنا ضجة عالية من ناحية الباب الامامى للحانوت . وفى هذا الوقت هرول الينا المدير تشيان ليأمرنا باقفال ابواب الحانوت ، فاتجهنا نحو واجهة الحانوت . يا له من جمع تجمهر هناك ! كانوا كلهم يصرخون " ارز ! ارز ! " وكان صاحب الحانوت شن يتصبب عرقا ، ومساعدا الحانوت الاثنان يلوحان بأيديهما ، ويصرخان باعلى صوتيهما ، محاولين تهدئة الجمهور الثائر . هذا المنظر ذكرنى بما حدث فى قريتى عندما طفنا بالطاغية المحلى وقسمنا اراضيه . ففى تلك الايام اقتحم الناس مخازن الغلال لملاك الاراضى واخرجوا اكياس الارز ووزعوها على الفلاحين الفقراء . وكم كنت اتمنى فى هذا الوقت ان يندفع هؤلاء الناس الى داخل الحانوت ويستولوا على اكياس الارز ! وكم كنت اتمنى ان يقبضوا على صاحب الحانوت شن ! ووقتئذ لم اتمالك نفسى عن الضحك

وانا افكر فى كل هذا !

صفعنى شن صفعة ، وسألنى غاضبا :

ـ ما الذى يضحكك ؟ اسرع واقفل الابواب !

برزت العروق فى جبينه وازرق وجهه ، فبدا كأنه خنزير .

تمهلت فى السير الى الخارج حيث تجمع الناس وانا اصرخ :

ـ افسحوا الطريق ! افسحوا الطريق ! فسوف نقفل الابواب .

تقدم منى جار لجنركشة (١) وسألنى :

ـ لماذا تقفلون الابواب ، والشمس لم تغرب بعد ؟ نريد شراء الارز !

اخبرته فى صوت منخفض :

ـ يجرى الآن تفريغ قارب من الارز عند الباب الخلفى للحانوت ، اسرعوا الى هناك !

بعد سماع قولى سأل جار الجنركشة بصوت عال :

ـ هاى ، يا صاحب الحانوت ، هل تبيع الارز ام لا ؟

ـ لا املك ارزا .

صرخ جار الجنركشة :

ـ اسمعوا ايها الناس ! انهم يفرغون الارز عند الباب الخلفى للحانوت ، ومع ذلك لا يريد صاحبه ان يبيع لنا حبة واحدة . انه يريد قتلنا جوعا . فلنذهب الى الباب الخلفى !

---

(١) الجنركشة : عربة ركوب صغيرة بدولابين ولها غطاء ويجرها شخص واحد .

ثم هرع نحو مرسى القارب فى النهر وتبعه الآخرون .

بعث هذا ذعرا فى قلب صاحب الحانوت شن ، فأمر بصوت متهدج :

ـ اسرعوا ! اتجهوا الى الباب الخلفى واحملوا الارز الى الداخل !

سألته عن عمد :

ـ هل ما زال على ان اقفل الابواب ؟

حملق شن فى وجهى غاضبا وقال :

ـ طبعا !

سألته مرة اخرى :

ـ اى الامرين انفذه اولا ، نقل الارز الى الداخل ام اقفال الابواب ؟

صاح فى وجهى :

ـ نفذ الامرين فورا !

ثم هرع باتجاه الباب الخلفى فى مقدمة الآخرين .

بعد ان اقفلت ابواب الحانوت ذهبت ايضا الى الباب الخلفى . كان هناك جمع غفير من الناس على ضفة النهر ، يحاولون كلهم الحيلولة دون ادخال الارز . اما شن الذى لم يحرك اصبعا طوال حياته ليؤدى عملا من الاعمال فقد كان يحمل ايضا كيسا مع المدير تشيان . وكان المساعدان ما وتشو يحملان كيسا آخر ، ولكن حاصرهم الناس .

وسأل جار الجنركشة صاحب الحانوت شن :

ـ قلت انك لا تملك ارزا ، ما هذا ؟

اجاب شن :

– وحتى اذا كان الارز موجودا ، فلن ابيعه لكم !

– ان هذه مضاربة واحتكار غير شرعى .

– هذا ليس من شأنك !

– انت تجوعنا ، فلا بد ان نأخذ الامور فى ايدينا .

وعندها التفت جار الجنركشة وخاطب الآخرين صارخا :

– تعالوا ايها الناس وخذوا ما تشاؤون !

اندفع الجمع الى الامام ، وحاول احدهم فك الكيس الذى كان يحمله صاحب الحانوت شن والمدير تشيان . فأخذ الفزع شن ، ووضعا الكيس على الارض ورمى شن نفسه عليه وهو يصرخ ويرفس بساقيه القصيرتين : "من يحاول ان يمس ارزى فسيدفع حياته ثمنا له !" شهدت هذا المنظر المخجل ، فلم اتمالك نفسى عن القهقهة .

فى هذه الاثناء نزل جمع آخر الى القارب ، وبما انهم استشاطوا غيظا ، بدأوا يلقون باكياس الارز الى النهر واحدا بعد آخر . ولما سقط الكيس الثالث فى النهر قفز شن من على الكيس وصرخ بكل ما اوتى من قوة : "من يرم الارز فى النهر يدفع ثمنه !" وبينما كان شن يسرع نحو القارب هجم الجمع على الكيس الذى كان فوقه ، ومزقوه وملأوا اكياسهم وسلالهم بالارز . ثم هجم عدد اكبر من الناس على الكيس الذى كان يحمله المساعدان ما وتشو . اما الذين لم يستطيعوا الوصول الى هذين الكيسين فقد هرعوا تجاه القارب ونزلوا اليه . فى هذه اللحظة اندفع صاحب الحانوت شن هنا وهناك

كأنما هو دجاجة قطع رأسها ، ثم نزل الى القارب ايضا . وفجأة صرخ احد الناس : " القارب سيغرق ! " فهرع الناس الى مقدمة القارب . وعندها انقلب القارب فى الماء محدثا صوتا عاليا .

فى ذلك الوقت طغى الهرج والمرج على ضفة النهر وعظمت البلبلة . فقفز كثير من الذين يعرفون السباحة الى الماء لانقاذ الغرقى . اما صاحب الحانوت شن فقد سقط هو الآخر وراح يحرك ذراعيه محاولا الخروج ، ومنظره مضحك للغاية ، فقد كان يطفو حينا ويختفى حينا آخر ، ويضرب الماء بكلتا ساقيه فى يأس شديد . يا ليته غرق ! فما اكثر الناس الذين سلب حياتهم هذا الرجل البدين بخلط الارز بالرمل واحتكاره والمضاربة به !

انقذ الغرقى واحدا بعد آخر ، الا شن ، اذ لم يكن احد يريد انقاذه . وفى النهاية اخرجه المساعد ما الى الضفة وهو منتفخ بالماء مثل ضفدعة منتفخة بالهواء .

لقد انقذ كل غريق من النهر ، الا ان الارز رسب فى القاع ! فظل شن يحملق فى الماء كأنه مجنون فقد عقله ، وهو يصرخ : " الارز ! الارز ! هيا اسرعوا وانتشلوه ! " ثم نهض وجر قدميه متمايلا نحو منزله . وعندما ذهب المدير تشيان ليسنده ، همس شيئا فى اذنه ، فأومأ المدير تشيان برأسه وذهب .

ولما افرغ الكيسان من الارز ورسب الباقى فى قاع النهر اندفع الناس مرة اخرى الى واجهة الحانوت . حينئذ رأيت فجأة امرأة تحمل طفلا ، وعرفت على التو انها المرأة نفسها التى لم تحصل على ما تريد شراءه من الارز . فقالت لى :

– أليس من المؤسف ان يستقر كل الارز فى قاع النهر ؟
قلت :
– ليس هناك فارق كبير ، فالارز يمكن انتشاله . بل وهذا سيوفر على صاحب الحانوت شن عملية شوبه بالماء ليبيعه لكم .
وابتسمت المرأة ابتسامة فاترة مريرة . كان طفلها ينشج باكيا وهو لا يزال هزيلا مصفرا ، وكانت سلتها لا تزال فارغة . فسألتها لماذا لم تحصل على بعض الارز عندما مزق الكيسان . فقالت انها لم تتمكن من الوصول اليهما لأنها كانت تحمل الطفل والسلة .
واضافت بينما سارت ببطء نحو واجهة الحانوت :
– ان صاحب حانوتكم رجل لا قلب له . ان كل ما يهمه هو ان يجمع الاموال بألف وسيلة ووسيلة ولو بتجويع الناس .
وفجأة تناهى الى مسمعها صراخ الناس من الامام فاسرعت فى سيرها راجية ان تحصل على بعض الارز هناك . وتبعتها ايضا .
كانت هناك ضوضاء امام الحانوت ، اذ كان الناس يصرخون ويضربون الابواب بأيديهم . فتذكرت مرة ثانية الهجوم على بيت هو هان سان . لا شك ان كل ضربة تبعث رعشة فى جسم شن البدين ، وتذهل زوجته التى تشبه الهيكل العظمى والتى بدأت تحرق البخور على عجل امام صورة اله المال ! لم تمض لحظة حتى حضر شابان يحملان عمودا خشبيا غليظا ، وبدأا يدكان به ابواب الحانوت . وكان الناس يصرخون بصوت غاضب : " افتحوا الباب ! نريد شراء الارز ! لا بد ان نأكل لنعيش ! " كانت ابواب الحانوت تهتز على وقع ضربات العمود ، تبدو وكأنها ستنهار بعد لحظة او

اخرى .

فجأة بدرت صرخة من احد الناس : " بوليس ! لقد جاء بوليس ! "
فظهر حوالى عشرين شرطيا مسلحا يتقدمهم المدير تشيان ، وكان رئيس مركز الشرطة سون بينهم ايضا ، ومسدسه على حزامه وقربه خنجر يتأرجح . وحين وصل سأل هادرا :

– من دبر كل هذا ؟ انكم تزعجون الامن والسلام ! هيا تفرقوا !

لم يتحرك احد من الناس ، فأمر رجاله بتفريق الجمع . وعندما وجه رجال الشرطة بنادقهم الى صدور الجمع ، تقدم الى الامام جار الجنركشة وواجه رئيس الشرطة قائلا :

– يجب عليك ان تأخذ صاحب الحانوت الى مركز الشرطة وتعاقبه ، اذ انه هو الذى يحتكر الارز ويضارب به ويجوعنا حتى الموت .

سأله رئيس الشرطة :

– من انت ؟

– انا واحد من ابناء الشعب ، جئت لاشترى الارز .

– ان الارز هو ملك لصاحب الحانوت . فالامر متروك له ، يبيعه او لا . انكم تخلقون بلبلة .

– كلا ، نحن لم نخلق بلبلة . كل ما نريده هو شراء الارز . لا بد ان نأكل والا فسنموت . وكل ما نطلبه من صاحب الحانوت هو ان يفتح باب حانوته ويبيع لنا الارز . هذا كل ما فى الامر .

وبينما كان جار الجنركشة يجادل رئيس الشرطة فتحت نافذة صغيرة فى احد ابواب الحانوت ، وصاح منها صاحب الحانوت شن

برئيس الشرطة :

– الق القبض على ذلك الرجل ، انه قاطع طرق ، احضر هؤلاء الغوغاء لسلب ارزى !

فأمر رئيس الشرطة :

– احتجزوا هذا الرجل !

فى هذه اللحظة قفز جار الجنركشة الى درجة الباب وخاطب الحشد :

– اسمعوا ايها المواطنون ، ان صاحب الحانوت الذى يحتكر الارز ويرفض بيعه ، لا يتعرض للعقوبة ، اما نحن الذين نطالب فقط بشراء الارز لينقذنا من الموت جوعا ، فنتهم بخرق القانون . هل هذا عدل ؟

اجابه الحشد بصوت واحد :

– كلا ! ليس من العدل ابدا !

– لا حق لك فى احتجاز جار الجنركشة هذا ! اعتقل صاحب

الحانوت اولا !

اما رئيس الشرطة فقد ظل يصرخ :

ـ اعتقلوه ! اعتقلوه !

كان الحشد يفور ويغلي من الغضب ، ويضرب ابواب الحانوت مرة اخرى . هجم اثنان من رجال الشرطة على جار الجنركشة . فما كان منه الا ان دفع احدهما دفعة بيده القته على الارض . اخرج رئيس الشرطة مسدسه وصوبه اليه ليطلق النار . وفى هذه اللحظة بالذات القت المرأة التى تحمل الطفل وتقف بجانبى سلتها على الارض واندفعت واقفة امام رئيس الشرطة ورفعت يدها صارخة :

ـ لا تطلق النار ! انه رجل فاضل .

الا ان رئيس الشرطة اطلق النار فأصابت الطلقة الطفل فى رأسه ، وسال الدم من ذلك الوجه الصغير الشاحب على صدر الام وعلى الرصيف امام حانوت الارز .

ـ انهم يقتلوننا ! لا بد ان نسوى معهم الحساب !

صاح الناس واطبقوا على رئيس الشرطة الذى اختبأ وراء رجال الشرطة وامرهم باطلاق النار واعتقال جار الجنركشة . ومن اجل الحيلولة دون اعتقاله ، تجمع عدد كبير من الناس واحاطوا به ، بينما قاد آخرون المرأة الثاكلة بعيدا . . .

وفى هذا الوقت فتح احد ابواب الحانوت ، وجر صاحب الحانوت شن رئيس الشرطة الى الداخل .

٦

انتهت الحادثة امام حانوت الارز . فقد خسر صاحب الحانوت كيسين من الارز ، وفقدت المرأة الفقيرة طفلها ، الا ان تلك الحادثة الدامية لم تنس . فقد انتشرت اخبارها وزادت من الحقد فى قلوب الناس . ورغم ان الدم الذى سال على الرصيف قد غسل بسرعة ، الا انه لم يغسل من ذاكرة الناس . وكلما مررت بذلك المكان تذكرت تلك الدماء الحمراء القانية وذلك الوجه النحيل الشاحب ذا العينين الكبيرتين الغائرتين ، ثم ام الطفل ، تلك المرأة الجائعة وهى تندب طفلها المقتول ، وجار الجنركشة الذى قاد الحشد ليناضل من اجل الارز . وبدأت ارى الامور بصورة اوضح . ان صاحب الحانوت شن ورئيس الشرطة هما على شاكلة واحدة . أولم يذهب رئيس الشرطة دائما الى بيت شن من اجل الاكل والشرب ويساعده كلما وقع فى ورطة ؟ اما الفقراء الذين لم يكن لديهم ارز يأكلونه فقد لموا شمل انفسهم وساعدوا بعضهم بعضا . أولم يتقدم ويتحدث جار الجنركشة باسم الجماهير مطالبا بأن يقدم لهم ما يأكلونه ؟ أولم تضح المرأة الفقيرة بطفلها حتى تنقذ جار الجنركشة وهى تمنع رئيس الشرطة من اطلاق النار عليه ؟ نعم ، فهذان النوعان من الناس كانا يسيران فى طريقين مختلفين ! وكانا من طبقتين مختلفتين تماما كما كان الفلاحون الفقراء وملاك الاراضى فى قريتنا من طبقتين مختلفتين ايضا .

بعد حادثة الارز وضع شن اعلانا على الباب الامامى للحانوت كتب عليه " تحت التصليح . العمل متوقف مؤقتا ." فلم نعد نحتاج

الى انزال الابواب او رفعها كل يوم . كان سعر الارز فى ارتفاع جنونى ، صار صاحب الحانوت شن يبتسم دائما ، فقال فى رضا وحبور :

– فقدت كيسين من الارز ، الا ان الكارثة ستجلب لى النتيجة الحسنة . فبقفل الحانوت بضعة ايام سوف احصل على ربح يساوى ثمن دستة اكياس من الارز !

قضى شن هذه الايام ينادم رئيس الشرطة وبقية موظفى المحافظة .

ذات يوم اعد شن وليمة كبيرة من نوعها ، ولما كنت افكر فى المدعوين جاء رئيس الشرطة ، وقال لشن :

– احضرت لك هذه المرة اله مال يمتلك بضع مئات مو من الاراضى التى تدر عليه ما يقرب الفى بيكول (١) من الارز كل عام ! والى جانب هذا فهو رئيس وحدة حفظ الامن المحلية ، وتحت قيادته اكثر من مائة رجل . ويطعمهم من الارز الذى يجمعه من الناس . اذا ما صادقته فسوف يكون لك مصدر لا ينضب من الارز ، وسوف تجمع ثروة طائلة !

غمر الفرح شن ، فظل ينحنى مرارا وتكرارا امام رئيس الشرطة احتراما له ، حتى ظن ظان انه سيركع على الارض ويسجد :

– انا مدين لك ، فقد جلبت لى الحظ السعيد . سوف احسن جزاءك ، سوف اقيم وليمة ، ها ، ها . . .

وفى هذه اللحظة دخل المدير تشيان ليعلن عن وصول ضيف بالقارب . فأصبح شن مبتهجا للغاية ، وذهب مع رئيس الشرطة الى

---

(١) البيكول : وحدة وزن صينية تساوى ٥٠ كغ .

الباب الخلفى للحانوت .

اما انا فقد امرت بتنظيف غرفة الضيافة الشمالية فى الفناء الخلفى . ومن عادة شن ان يستقبل الضيوف العاديين فى الغرفة الامامية ، وان يدعو الضيوف الخاصين الى هذه الغرفة الداخلية . كان فى وسط الغرفة طاولة كبيرة مستديرة ، وقد مسحتها حتى اصبحت تلمع كالمرآة . ووضع عليها ابريق ملئ بالشاى ، وحوله صحن ملئ ببذر البطيخ وآخر بالحلوى بالاضافة الى صحن كبير من اليوسفى . وفى هذا الوقت سمعت وقع اقدام ، وكان شن ورئيس الشرطة يتحدثان مع احد الناس . وتمتم شن فى تذلل وتملق :

ــ تفضل من هنا ! تفضل بالدخول !

ودخل الرجل الغرفة . كان يرتدى جلبابا طويلا فوق سروال اصفر من الجوخ لركوب الخيل ، ولبادة وحذاء جلديا اسود . فأدار نظرة سريعة اول الامر يفحص بها الغرفة . وعندما قابلت عيناى عينيه شاهدت عينين مثل عينى الذئب . وهل يمكن ان انسى مدى الحياة تينك العينين ؟ اذن فهو طاغية قريتنا هو هان سان ! " ها انت ذا ايها الكلب . . . ! " لعنته فى سرى . ولم ينتبه هو هان سان الى . فقد اخذ على الفور الى مقعد الشرف حيث كان لزاما على ان اقدم له الشاى والسجائر والحلوى . وعندما اشعلت عود ثقاب لاشعل سيجارته امعن نظره فى . فأدرت ظهرى وغادرت الغرفة .

اصابنى الدوار لما ظهر امام عينى ــ تدلت امى من على الشجرة وتحتها اللهيب المتأجج ، وجر العم سونغ وزج به فى سجن مظلم رطب ، وتقدم هو هان سان مجموعة من رجال الحرس الابيض والجنود

اليابانيين ليهاجموا قاعدة فرقة عصاباتنا . . . والآن ها هو هو هان سان نفسه يجلس فى غرفة الضيافة ! لقد اشتعل بى الحقد . وبينما انا افكر كيف انتقم لكل ما حدث ، اذ سمعت هو هان سان يسأل شن :

– من ذلك الولد الذى اشعل لى السيجارة قبل قليل ؟ من اين جاء ؟

– من هذه المحافظة ، من احدى القرى الملاصقة للمدينة .

– آه ، انه يشبه فلانا ما فى قريتى .

– من قريتك ؟

– لا بأس اذا كان مستوطنا هذا المكان .

فى هذه اللحظة حضر ليو لاى تسى يطلب منى ان اساعده فى تفريغ الارز . سألته مندهشا :

– من اين جاء الارز ؟

– الرجل الذى قدم قبل قليل احضره .

– ما كميته ؟

– حمولة قارب كاملة . حوالى اربعين او خمسين بيكولا .

– لا بد ان يكون معتصرا من اهالى قريتى !

– كيف هذا ؟

رافقته الى القارب ولم اجب لأننى كنت افكر فى امر آخر .

بعد تفريغ الارز ذهبت الى غرفة الضيافة . رغم احتقارى لتلك الشرذمة ، فقد كان على ان اصب لهم النبيذ . وكلما احضرت لهم صحنا كنت انظر الى هو هان سان ، الى ملامحه الاجرامية والى شاربه

القصير وعينيه الماكرتين الداهيتين . أ ما من نهاية لأكل هؤلاء الناس وشربهم وضحكهم المقيت ؟

قال شن لهو هان سان :

ـ اننى افكر فى الحصول على بضع عشرات مو من الاراضى فى الريف لابنتى ، ارجو ان تساعدنى على ذلك .

اجاب هو هان سان :

ـ سأنظر فى هذا الامر . واذا ما استطعت ذلك يسرنى جدا ان اساعدك .

قال رئيس الشرطة متدخلا :

ـ ايها الرئيس هو ، اذا كان لديك اى ارز تود بيعه فاتصل بشن مباشرة . وسوف يدفع لك ثمنا حسنا .

ـ اخشى ان اسبب له كثيرا من المتاعب فيما بعد ، ما دمنا قد تعرفنا على بعضنا بعضا .

وهكذا استمروا !

بدأت افهم احسن من ذى قبل ان الطغاة المحليين الذين يضطهدون الفلاحين الفقراء ، واصحاب المخازن فى المدينة الذين يخزنون البضائع ويضاربون فى السوق ، ورؤساء الشرطة ، والحرس الابيض ، والغزاة اليابانيين جميعهم من طين واحد ، وهم يعيثون فسادا فى قرانا ومدننا . بينما كنت افكر فى ذلك ، كدت ان ادلق وعاء كبيرا من الحساء على جلباب هو هان سان الطويل . فحدجنى شن بنظرة فيها العتاب والتوبيخ ، بيد ان هو هان سان ابتسم قسرا وقال :

ـ لا شىء فى الامر .

ثم سألني وقد ادار جسمه الى :

ــ ما اسم عائلتك ؟

وخشية من ان يعرفني من لهجتى المحلية ، حملت الطبق متجها نحو الخارج . وعندما اقتربت من العتبة قلت بصوت منخفض :

ــ ان اسم عائلتى هو قوه .

اذا ما عرف هو هان سان اننى الولد الذى كان يبحث عنه ، فلا شك انه سيقتلنى . لذا يجب الا اقع فى قبضته والا فلا يمكننى ان اثأر . اذن ما العمل ؟ لم يكن من الممكن ان اذهب الى العم تشاو واسأله لأنه قد هجر مكانه القديم . لا بد من ان ارسم خطة ما . فلم اعد الى غرفة الضيافة ، بل ذهبت لاجد ليو لاى تسى وطلبت منه ان يكمل خدمة الضيوف بدلا منى . ثم جمعت ملابسى فى صرة صغيرة وقصدت الى المدخل الامامى للحانوت حيث جلست وراء الطاولة افكر . يجب الا اترك هذا الطاغية المحلى الشرس ، وهو عدوى اللدود ، يفلت من يدى هذه المرة .

طرق سمعى صوت شن من غرفة الضيافة بعد ان انتهت المأدبة :

ــ يا دونغ تسى ! تعال واصحب الضيف الى الغرفة الغربية لينال قسطا من الراحة .

ذهبت . وكان وجه هو هان سان محمرا بفعل السكر وعروق عينيه منتفخة بالدم .

سألنى هو هان سان واحدى يديه تقبض على كتفى :

ــ ما اسمك ؟

ــ قوه تشن شان .

ـ هل قلت قوه ؟

اجبته بهدوء :

ـ نعم ، قوه .

ـ من اى مكان تنحدر ؟

عندها اختفت ابتسامته المصطنعة ، وقد بعثت عيناه الحمراوان ضوءا باردا وشرسا .

ـ من قوخه خارج المدينة .

ـ انك لست من اهل هذه المحافظة !

وانغرست اظافر يده فى كتفى حتى شعرت بأنها تمزق لحمى .

قلت لشن :

ـ انه مخمور .

خلصت نفسى من قبضته وذهبت الى الخارج .

وعلت وجه هو هان سان ابتسامة متكلفة وقال :

ـ لا تذهب ، انا مخمور . عليك ان تساعدنى لاصل الى الغرفة .

واصر على ان اوصله الى غرفته برغم ان شن رجا ان يصطحبه بنفسه .

عندما وصلنا الى الغرفة الغربية قلت له وانا اكتم غيظى وكراهيتى :

ـ انطرح على الفراش . سوف احضر لك بعض الماء لكى تغسل وجهك .

ولما خرجت من الغرفة لم اكن افكر فى شيء سوى الثأر . ولكن بأى وسيلة ؟ عصرت ذهنى لذلك ، حتى وصلت الى المطبخ حيث احضرت الماء الساخن ورأيت فأسا لشق الحطب ملقى بجانب الموقد .

قلت فى نفسى : انه سلاح ! من الافضل ان اخبئه . فوضعته خلف باب المطبخ ، ثم عدت الى الغرفة الغربية وانا احمل الماء الساخن .

كان هو هان سان قد خلع جلبابه الطويل وكان مسدسه ملقى بالقرب من وسادته . وضعت اناء الماء الساخن على منضدة الغسيل وسرت خارجا . " قف ! " رفع صوته من ورائى ، فوقفت دون ان التفت .

سألنى :

– هل املك فى البيت ؟

طعنتنى هذه الكلمات كالخنجر . لو كانت الفأس فى يدى فى تلك اللحظة لضربته بها حتى الموت ، الا اننى كظمت غيظى واجبت :

– كلا .

– هل ماتت ؟

– كلا ، انها على قيد الحياة .

– اذن ، اين هى ؟

– انها برفقة عمى الى الجبل الجنوبى .

– آه !

سار هو هان سان خطوة نحوى آمرا :

– ادر نفسك وواجهنى !

استدرت فجأة وحملقت فيه قائلا :

– ماذا تريد ؟

واصل هو هان سان حديثه وهو يمسك مسدسه بيده :

ــ ووالدك ؟

ــ انه فى البيت .

ــ ماذا يعمل ؟

ــ انه جزار ، يذبح الخنازير .

سار هو هان سان خطوة اخرى نحوى وقال :

ــ هل يذبح الناس ؟

نظرت اليه فى تحد متجاهلا سؤاله .

وصوب مسدسه نحوى قائلا :

ــ انك تكذب . انت ابن بان شينغ يسى من قرية ليوشى !

هززت رأسى اقول :

ــ كلا ، ان والدى هو قوه شان رن .

قال هو هان سان وهو يبتسم ابتسامة صفراء :

ــ ها ، لا تغادر هذه الغرفة مساء اليوم . وغدا تعود معى الى قرية ليوشى . هل سمعت ؟

لقد عرفنى العدو . فما الذى توجب على ان افعله ؟ اردت ان اهجم عليه وانتزع مسدسه من يده واطلق النار عليه . بينما انا استعد لذلك اذ حضر ليو لاى تسى واخبرنى قائلا :

ــ لقد جاءت امك لزيارتك يا قوه تشن شان . انها تنتظرك فى الخارج .

وعندما كان هو هان سان يحاول ان يتقرى شكلها انتهزت الفرصة للخروج .

قادنى ليو لاى تسى الى طاولة الحانوت حيث شددت على يده

شاكرا له جميله . فخلال العام ونصف العام الماضيين كنت قد اخبرته عن عائلتي — ابى وامى ونفسى ، فلم يعطف على وحسب بل حاول مساعدتي بكل طريق ممكن . وعندما سمع هو هان سان يستجوبنى ، بادر وابتدع قصة زيارة امى .

نظر ليو لاى تسى حوله ولما ادرك خلو المكان سألنى :

— من ذلك الرجل ؟ ولماذا صوب مسدسه نحوك ؟

— انه قاتل امى !

— آه ! لهذا السبب كان يحملق فيك بهذه الصورة اثناء المأدبة ! وقد سمعته يقول بأنه سيأخذك الى قرية ليوشى ، فقدرت بأنه قد يكون هو نفسه .

— اننى عاجز عن شكرك !

— لقد نجوت هذه المرة . ولكن كيف تعمل غدا ؟ واذا ما اراد هو هان سان ان يأخذك فان صاحب الحانوت لن يمنعه .

لم اجبه خوفا من ان يحول بينى وبين تنفيذ خطتى .

حل الليل . كان الصبى الاكبر الذى تحت التمرين قد ذهب لقضاء عطلة ، وكنا ، انا وليو لاى تسى ، ننام على الارض وراء طاولة الحانوت الطويلة . فنصحنى ليو لاى تسى ان اهرب تحت جنح الظلام ، ووعدته بذلك ، ولكن طلبت منه ان ينام اولا .

اما انا فلم افكر الا فى قتل هذا العدو الطبقى ، والا فسوف يقتلنى هو .

قمت بخفة ، ووضعت صرتى الصغيرة على الطاولة ، ثم سلكت طريقى نحو المطبخ . كان الظلام مطبقا لأن القمر لم يكن قد طلع

بعد . وجدت باب المطبخ مغلقا بالقفل ، فعالجت النافذة . لم تكن مقفولة بالمزلاج . لهذا فتحتها لاتسلل الى المطبخ . وقعت يدى على علبة ثقاب وفكرت فورا فى النار . وفجأة ظهرت امى فى مخيلتى وهى تنظر الى وسط نار متأججة . آه ، النار ! يا هو هان سان ، لقد حرقت امى حتى الموت وسوف تموت بالنار ! نعم بالنار ! لقد كان مخمورا ولا بد ان يكون مستغرقا فى النوم كالخنزير . واذا ما احترقت غرفته فسوف لا يجد فرصة للخروج .

وضعت علبة الثقاب فى جيبى ثم حملت حزمة من القش الجاف . وسرت فى حرص وحذر شديدين الى الغرفة الغربية . كانت الانوار مطفأة ففتحت باب الغرفة . كان هو هان سان يغط فى النوم . وضعت القش الجاف تحت سريره واشعلت عودا من الثقاب . فاشتعلت النار حالا ، واسرعت بالخروج من الغرفة محاولا قفل الباب بقطعة من الحبل . " سوف تصبح رمادا فى الحال ايها الوغد ! " قلت ذلك فى نفسى بينما هرعت نحو طاولة الحانوت .

شعرت بارتياح لما فعلت ، ثم نظرت الى ليو لاى تسى وهو يستغرق فى نوم عميق وقلت له فى صمت : " اننى ارحل الآن . وداعا يا ليو لاى تسى ! "

حملت صرتى الصغيرة وفتحت الباب بهدوء . والقيت نظرة على الفناء الخلفى . كان الدخان يتصاعد من نافذة الغرفة الغربية متبوعا بألسنة النيران . وعندها شعرت بأن قلبى دافىء كالنار . ثم سمعت انسانا يصرخ فى الغرفة وهو يحاول فتح الباب من الداخل . وصاحت زوجة صاحب الحانوت من الغرفة الشرقية :

— النار ! ان الغرفة الغربية تلتهمها النار !

وتبع هذا صوت صاحب الحانوت يصرخ :

— اسرعوا ! اسرعوا ! اطفئوا النار !

وهرع الاثنان من غرفتهما لايقاظ ضيفهما . لقد ناديا باسمه ولكن ما من مجيب . وعالجا الباب ولكنه كان لا يزال مغلقا باحكام ، ولهذا كان لا بد ان يفكا العقدة قبل الهروع الى داخل الغرفة وجر الرجل منها . لم يفق هو هان سان الا بعد وقت طويل ، وظل يتمتم : " اقبضوا على ذلك الولد . . . اقبضوا . . . عليه ! " وفى هذا الوقت بدأت زوجة صاحب الحانوت تدق طستا نحاسيا انذارا باشتعال النار .

لم استطع ان ابقى طويلا فى هذا المكان ، لذا خرجت من باب الحانوت وهرولت .

ولم اهدىء من سرعتى الا بعد ان بلغت طريقا عاما خارج المدينة فتنفست الصعداء . كنت مطمئنا الى حد ما ، لأنهم لن يستطيعوا اللحاق بى . وهكذا سرت وسرت وانا افكر فى اشياء عديدة : اين اتجه ؟ هل اعود الى قرية ليوشى ؟ طبعا هذا لا يجوز . هل الجأ الى العم سونغ ؟ انه فى السجن .

وماذا عن رجال فرقة العصابات ؟ واين هم الآن ؟ وفجأة فكرت فى يانآن ! ألم يخبرنى الاخ وو بأن والدى قد ذهب الى يانآن مع الرئيس ماو ؟ نعم ، يانآن هى المكان الذى سأذهب اليه . ولكن اين يانآن ؟ يا له من هدوء ! كان الهلال يطلع . فرفعت رأسى ابحث عن نجم القطب . سوف اتبع هذا النجم لأننى تذكرت ان الاخ وو قال ان يانآن تقع فى الشمال . فبدأت مسيرتى مهتديا بذلك النجم وهواء الليل يملأ رئتى . . .

٧

كما انطلق الطائر من القفص طرت نحو الشمال ، وواصلت سيرى دونما توقف . كان الهلال يضىء طريقى ، وبوصلتى هى نجم القطب ، وغدا كل شىء هادئا الى حد لم يكن يسمع معه هناك سوى وقع خطواتى. ويممت شطر الشمال وانا اجتاز الجبال ، واعبر الانهار . وبعد ان نال منى التعب ، جلست على ضفة نهر صغير لاستريح واتنسم نسائم الربيع

الرطبة ، وشربت بيدى بضع جرعات من الماء . كم كان خرير الماء ناعما ! وكم كان الهواء نقيا ! اخذت نفسا عميقا فأصبحت نشيطا وسعيدا ، اذ ازيح عن صدرى عبء ثقيل . لم اعد اسمع صراخ تلك المرأة النحيفة المزعج ، وغاب عن عينى منظر ابنتها المقيت وهى تلعق الحلوى . ولم اعد خادما لصاحب حانوت الارز البدين ، ولن اقف ابدا وراء الطاولة لابيع للفقراء ارزا مخلوطا بالرمل . . . لقد انتهت الحياة الخانقة التى قضيتها فى حانوت الارز خلال العام والنصف الماضيين . ومن بعيد بلغ اذنى صياح الديكة ، فلا شك ان النور سوف يغمر الارض بعد قليل ، ويجب على ان اسرع الى الامام بكل ما فى وسعى ، فحملت صرتى الصغيرة وبدأت سيرى مرة اخرى .

ومع بزوغ اول انوار الفجر ظهرت السحب المتوردة فى الشرق . . ما اجمل منظرها ! ففى مثل هذا الوقت كنت انزل المصاريع الخشبية عن باب حانوت الارز واكنس البيت واخدم صاحب الحانوت وافراد عائلته ، ولا اجد فرصة قط لاستمتع بجمال الشروق . لكننى اليوم وقفت عند شجرة صغيرة ، وتأملت لمدة طويلة سماء الصباح فى الشرق . لقد انعكست على سطح مياه حقول الارز السحب القرمزية ، وكانت شتلات الارز الطرية محلاة بأندية الصباح الشفافة ، كأنها اللآلىء . وحط طائر من عشه على الارض مغردا ، ثم حلق فى السماء . كان كل شيء طريفا وغريبا بالنسبة لى ، فشعرت بأننى محق تماما فى هجر حانوت الارز الخانق .

عند وصولى الى احدى القرى شعرت بالجوع ، فدخلت كشكا مسقوفا بالقش على جانب الطريق لابتاع قصعة من الارز . فسألتنى

المرأة العجوز التى كانت تشرف على هذا الكشك عن الجهة التى قدمت منها والى اين اتجه . فاخبرتها اننى حضرت من الجبال لزيارة بعض الاقارب .

قالت المرأة العجوز :

– يبدو انك سرت طوال الليل ؟

اصابتنى الدهشة وسألتها على عجل :

– كيف عرفت ؟

– ملابسك وحذاؤك جميعها مليئة بالندى والطين !

اثار انتباهى هذا القول فورا . وقلت فى نفسى : اذا طاردنى رجال هو هان سان فلا بد ان يتعرفوا على لأول وهلة وانا فى مثل هذه الحالة ، من الافضل الا اتلكأ فى هذا الكشك. فالتهمت الارز التهاما وغادرت الكشك . لم أر احدا من الناس فى الطريق ، فعدت لاسأل المرأة العجوز عن المسافة التى تفصلنى عن اقرب حاضرة للمحافظة .

اجابتنى :

– ان هذا بحسب الحاضرة التى ستذهب اليها . فهناك حاضرة تبعد اربعين لى فى الجنوب ، والاخرى فى الشمال تبعد خمسين لى ، فأية حاضرة تود الذهاب اليها ؟

اجبتها :

– الى الشمال .

وهكذا تركت الكشك وبدأت السير شمالا . وفى طريقى كنت افكر ان المدينة التى تبعد اربعين لى فى جهة الجنوب لا بد ان تكون هى تلك التى تركتها قبل قليل ، واذا ارسل هو هان سان رجاله لاعتقالى

فسيلحقون بى بعد فترة وجيزة ، فالطريق غير مأمون ، اذن يستحسن ان اختفى حينا من الوقت . وهكذا تركت الطريق ويممت شطر الجبل الذى كان يبدو امامى على مسافة قصيرة .

وجدت الجبل أكثر انحدارا واعلى مما كان يبدو ، وبدأت اتسلقه كمن يحبو ، ووصلت الى قمته وانا الهث من التعب . ولما شعرت بالطمأنينة هناك جلست على صخرة لاستريح . كان المكان جميلا تحيط به الاشجار الخضراء واشجار الخيزران ، وكانت الشمس قد اشرقت ، فاكسبتنى الدفء وملأتنى فرحا . ولم اكن اشعر خلال العام والنصف الماضيين بأننى حر طليق كما شعرت الآن . فمددت ساقى ووضعت الصرة الصغيرة تحت رأسى واستسلمت للنوم .

صحوت على ضجة اصوات ونهضت من المخبأ وسط الصخور والاشجار ، ورأيت عند ممر الجبل اثنين من رجال " فصيلة حفظ الامن " يرتديان سترات صفراء وهما يقودان فى اسفل الجبل المرأة العجوز التى كانت تبيع الارز فى كشك الطعام ، وسمعت الرجلين يسألانها :

— ألم تشاهدى ولدا يتسلق ذلك الجبل ؟

اجابت :

— لم اشاهد اى ولد !

— ان احد الناس شاهد الولد وهو يتسلق الجبل .

— لم اشاهد اى انسان يتسلق الجبل .

قال احدهم :

— آه ! لنقفل راجعين . لا داعى الى اتعاب انفسنا ! اذا تمزقت

احذيتنا فما من احد بالتأكيد يشترى لنا احذية جديدة .

قال الآخر :

— ولكن اذا قبضنا على هذا الولد فسوف نحصل على المكافأة البالغة خمسين درهما فضيا .

سألت المرأة العجوز :

— لماذا تريدون القبض على ذلك الولد ؟

— انه ابن شيوعى ، لقد اشعل النار بأحد الناس محاولا قتله .

وقفت المرأة العجوز ونظرت الى اعلى الجبل قائلة :

— لا اعتقد انه يختبىء هناك . ولا يوجد شيوعيون فوق ذلك الجبل .

الا ان الجنديين تجاهلا كلامها وتحركا باستمرار نحو قمة الجبل ، فدرت على عقبى بخفة متجها الى جبل آخر .

هناك صعدت شجرة ذات اوراق كثيفة فى منتصف الجبل ، وخبأت نفسى فيها . ولم يمض وقت طويل حتى وصل الجنديان الى الجبل ، فأدارا بصرهما بعض الوقت هنا وهناك ثم بدأا النزول وهما يلعنان حظهما التعس .

جلست على فرع الشجرة وفكرت كيف امكن هو هان سان ان يأمر رجال " فصيلة حفظ الامن " فى هذه المنطقة بالبحث عنى ؟ الآن اصبح واضحا لدى ان كل هؤلاء الاوغاد يرتبط بعضهم ببعض ، وانهم جميعا ضد الشيوعيين ، وحالما اصدر لهم رؤساؤهم الاوامر ، خرجوا كلهم لتنفيذها ، ولا سيما كانت هناك جائزة مقدارها خمسون يوانا فضيا !

مالت الشمس نحو المغيب ، فنزلت من الشجرة ، ولكننى لم اجرؤ على النزول من الجبل خوفا من ان اقع فى ايدى رجال " فصيلة

حفظ الامن " الذين من المحتمل ان يترصدونى عند اسفل الجبل ، الا ان الجوع استبد بى حتى شعرت بالالم ، ولم اجد اى فاكهة برية آكلها فى الجبل . وعندها تذكرت فجأة ما قاله والدى عند استخراج الطلقة من ساقه : اذا كنت لا تخاف من الالم ، فسوف يزول الالم . حقا ، اصبحت لا اشعر بالجوع حين امتنعت عن التفكير فيه ، ولكننى كنت مشتاقا الى والدى والجيش الاحمر وحاولت التخمين بميعاد عودتهما . ان رجال الحرس الابيض ارتكبوا جرائم شنيعة فى كل مكان ، وملاك الاراضى قد استرجعوا اراضيهم ، والفقراء لم يجدوا ارزا يأكلونه . ثم هنا الآن يحاول رجال هو هان سان القبض على .

كم هى كراهيتهم للجيش الاحمر وخلفه ! والناس كلهم هنا يتطلعون الى اليوم الذى يعود فيه الجيش الاحمر مرة اخرى . وفجأة شاهدت سربا من الاوز البرى يطير فوق رأسى على شكل رأس رمح متجها الى الشمال . وكم تمنيت ان تنزل واحدة منه لتحمل رسالتى الى يانآن !

بعد غروب الشمس ظهر بعض الضباب ، وكان الجبل يعبق بأبخرة ضاربة الى البياض ، فسارعت فى النزول واخترت الطريق الذى يؤدى الى الشمال وسرت بخطوات واسعة .

واصلت سيرى برغم تعبى وجوعى وانا معبأ بفكرة الوصول الى يانآن ، ورؤية والدى والقيام بالثورة مع الرئيس ماو ، وعودة افراد الجيش الاحمر لاثأر لامى معهم . اصاب الاعياء ساقى وتقرحت قدماى ، ولكننى تابعت المسير حتى وصلت الى مشارف حاضرة محافظة عند الفجر .

كان هناك محل لبيع المأكولات ، الا ان النقود التى كانت معى لم تكن تكفى الا لشراء قصعة من حساء الارز وبضع كعكات وقليل من الفطائر المقلية ، فانفقتها كلها فى وجبة واحدة ، ومنذ الآن فصاعدا سوف استجدى الناس . ولكن لا بد ان اصل الى يانآن حتى ولو اضطررت للتسول طوال الطريق !

سرت يوما آخر وانا استجدى . وفى اليوم التالى بدأ المطر يتساقط ، ووجدت السير صعبا . حينئذ وصلت الى احدى القرى حيث رأيت حظيرة بقر ، فذهبت اليها وجلست فيها لانتظر توقف المطر ، ولكنه ظل مستمرا ، واصبح الطقس باردا قارسا . فتحت صرتى واخرجت السترة التى اعطتنيها امى وارتديتها فتذكرت ما قاله والدى لامى فى

الليلة السابقة لذهابه للانضمام الى الجيش الاحمر : " اذا بقيت حكومتنا الديمقراطية للعمال والفلاحين قائمة هنا فأرسلى دونغ تسى الى مدرسة لينين الابتدائية . " وبرغم انه لم تتح لى فرصة للالتحاق بمدرسة لينين الابتدائية ، الا ان الحياة الواقعية فى هذه السنوات قد علمتنى كثيرا ، فقد عرفت من الذين اجبرونى على التشرد فى هذه الجبال ؟ انهم هو هان سان ، وصاحب حانوت الارز ، ورئيس الشرطة ، والحرس الابيض . وهم جميعا ينتمون الى الطبقة التى تضطهدنى . كم كنت مشتاقا لاعثر على والدى ، فأقوم بالثورة معه تحت قيادة الرئيس ماو كى نطيح بهذه الطبقة التى اضطهدتنا . مددت يدى الى زاوية السترة اتحسس النجمة الحمراء التى اعطانيها والدى وهى مازالت موجودة فيها ، فشعرت حالا بالقوة والقدرة على مواصلة السير .

خف المطر فدخلت القرية بحثا عما آكله . فقدم لى اصحاب عائلتين متوسطتى الحال بقية من الارز . ثم مررت ببيت ذى بوابة عالية ، وما ان وقفت عندها حتى اندفع نحوى كلب اسود نابحا ، وقبل ان اهرب منه تمكن الوحش من قضم قطعة لحم من ساقى التى بدأت تنزف الدم . فالتقطت حجرا ضربت به رأس الكلب ، فعوى وفر هاربا . وفى هذا الوقت فاجأتنى صرخة ، واذا بى أرى رجلا سمينا يخرج من البوابة العالية ، كان فى مقتبل العمر شاحب الوجه ، بلا حواجب ، وعيناه تشبهان عيون الفأر ، وانفه افطس وفمه كبير ولحيته خفيفة ، وكان يلبس طاقية من الحرير . تأكدت للنظرة الاولى من انه رجل سىء ، وعندما حاولت المغادرة سألنى :

— هل انت شحاذ ؟ . . لماذا تشحذ ؟

اجبته :

– اننى جائع بسبب اننى قطعت مسافة طويلة ولم احضر معى شيئا من الطعام .

وعندما سألنى من اين انا شككت فى نيته واجبته بنبرة مبهمة : "من الجبل" .

ثم سأل :

– واهلك ؟

– لا اهل لى .

– انت وحدك فقط ؟

– نعم ، انا وحدى .

– واين تتجه ؟

– ليست لى جهة محددة .

– حسنا ، سأجد لك مكانا تجد فيه رزقك .

وحملقت فيه وانا حذر .

– اذن ، تبقى فى بيتى !

سألته :

– ما العمل ؟

– ترعى الابقار لى وتقوم بأعمال اخرى ، وسأطعمك .

تأكدت من قوله انه مالك ارض يود ان يجعل منى اجيرا فى بيته . حدقت اليه وقلت بلهجة قاطعة :

– كلا !

ادرت ظهرى وانصرفت . فصرخ الرجل ورائى : " ايها الشحاذ

الفقير ، اذا وجدتك فى قريتى مرة ثانية فسوف اكسر ساقيك !"

لم استسلم لتهديده ، وسرت متجها نحو القرية . فلحق بى هذا الرجل واخذ عصا وضربنى بها صارخا فى وجهى :

— اخرج ! لا اسمح لك بأن تدخل قريتى .

فاستشطت غضبا وتناولت قطعة من الطين وقذفتها فى وجهه .. فى عينيه ! فاسرع الى مسحها بيديه تاركا عصاه على الارض ، فالتقطت العصا وسددت اليه ضربتين قويتين وهرعت راكضا من القرية .

وعلى جبل ليس بعيدا عن القرية كان هناك معبد تسلقت اليه ، فوجدته مهجورا تماما ، وبوابته مفتوحة . وفى ساحته شجرة جنكة ضخمة ، وكانت الغرف الواقعة شرقا وغربا مغلقة ، الا ان باب الغرفة الواقعة فى جهة الشمال كان مفتوحا على مصراعيه ، فدخلتها . ووجدت ارضها مليئة بالتراب ورماد البخور ، وكان على المنضدة تمثال لاله ذى وجه معدنى ولم تكن امامه مباخر او شمعدانات ، كأنما لم يزره عابدون منذ مدة طويلة . فأزحت بكفى التراب عن اريكة حجرية طويلة ، ونشرت عليها لحافى القطنى الخفيف ، وخلعت ملابسى المبتلة ، واستلقيت . ولأننى كنت متعبا غاية التعب استغرقت فى نوم عميق .

صحوت فى منتصف الليل . كان كل ما حولى حالك الظلام ، وكانت الريح تهب كأنما تريد ان تقتلع شجرة الجنكة من جذورها ، وتلقى بالمعبد الصغير بعيدا عن هذا الجبل . ولم تكن ملابسى قد جفت بعد ، وشعرت بالبرد القارس والجوع الشديد . وبحثت فى صرتى ولبست كل ملابسى ، ثم لففت نفسى بلحافى القطنى الخفيف ،

وحاولت النوم مرة اخرى ولكنى لم استطع . وشعرت ، وانا مستيقظ ، ان البرد والجوع غير محتملين ، وان الليل حالك ، لا نهاية له .

اخيرا خفت الريح ، الا ان الفجر كان بطئ البزوغ . وبعد مرور قليل من الوقت انبلج الصبح ، فوثبت نازلا من الاريكة الحجرية الطويلة ، وخرجت من المعبد .

كانت الشمس قد طلعت وارسلت ضوءها على حائط المعبد الغربى ، فبدت عليه خطوط كلمات ممحوة بفعل الامطار : " حطموا الطغاة المحليين ! وزعوا اراضيهم ! " لقد وهبتنى هذه الكلمات قوة وشجاعة . اذن ، قام الناس هنا بالثورة ايضا ! وبالرغم من انهم يئنون الآن تحت وطأة الحكم الارهابى الابيض ، الا ان الجيش الاحمر لا بد ان يعود فى يوم من الايام ، وسوف تتم الاطاحة مرة اخرى بالطغاة المحليين ، وسوف توزع الاراضى مرة اخرى على الفقراء ، وسوف تنتصر الثورة بالتأكيد .

عدت الى المعبد وربطت صرتى ثم نزلت من الجبل واتجهت نحو القرية مؤملا ان اجد شيئا آكله لكى اواصل رحلتى .

كان الناس يتناولون وجباتهم لما وصلت القرية . وقد قدمت لى عائلة متوسطة الحال قصعتين من حساء الارز ووجدت فيهم اناسا يعطفون على الفقراء . وحين كنت على وشك مغادرة القرية ، قابلت تلميذا يبدو فى الثانية عشرة او الثالثة عشرة من عمره ، كان يرتدى ملابس حريرية انيقة ، وعلى كتفه محفظة الكتب ، وشعره قد سرح بشكل جيد ، ومن هندامه عرفت انه ينتمى الى عائلة غنية . كان يمضغ كعكة حلوة من الارز ويمشى ، فاقترب منى وتوقف فجأة وقال لى

متحديا :

– ايها الشحاذ الصغير ، تعال الى هنا ؟ نادنى بابا ، وسوف اعطيك قطعة من هذه الكعكة .

كانت هذه الاهانة اكثر مما اتحمل ، ولكن تفاديا لاثارة الضجة لم اقل شيئا وسرت فى طريقى . فلحقنى هذا الوقح ، ثم القى بالكعكة على الارض وهو يقول :

– كلها ، ايها الكلب ، كلها !

لم استطع تحمل ذلك ، فركلت قطعة الكعكة تلك على بعد عشرة اقدام ، وعند ذاك صرخ هذا الولد :

– ادفع لى ثمن الكعكة !

– نعم ، سأدفع ثمنها !

لم اكمل كلامى حتى انهلت عليه ضربا ، وصفعته صفعتين على وجهه ، فانطبعت اصابعى على خده .

صرخ الولد كالحيوان المتوحش وهو يتمسك بسترتى :

– الحقوا بى ، ايها الناس . . صفعنى هذا الشحاذ !

القيت به ارضا ، الا انه تشبث بساقى ، فلم استطع التخلص منه رغم كل محاولاتى .

اخرجت صرخاته الحادة الناس من بيوتهم ليشاهدوا ما يجرى ، وكان من بينهم امرأة عجوز تقدمت منى وهمست فى عطف :

– انظر ، هل تعرف ما فعلت ؟ لقد اوقعت نفسك فى مأزق . اسرع واهرب من هنا ! فاذا ما خرج والده فسوف تكون عاقبتك وخيمة .

قال رجل كهل آخر :

– ان هذا ابن حاكم القرية ، ويستطيع ان يفعل بك ما يشاء ، فلم ضربته ؟

حاول ان يفك قبضة الولد من ساقى كى استطيع التخلص منه . ولكن جاء رجل وهو يصرخ ويلعن . ورفعت رأسى فرأيت الرجل السمين نفسه الذى رميت الطين فى وجهه . وعندما شاهد الولد الرجل هتف بصوت جهورى :

– ابى ، اسرع يا ابى !

امسك الرجل السمين بكتفى وجرنى خلفه . لقد ادركت ان الجدال معه لا يجدى ، ولهذا لم افتح فمى . احتشد كثير من الناس ، وحاولت المرأة العجوز التى عطفت على ان تستعطفه من اجلى وقالت له :

– يا حاكم القرية ، اصفح عن هذا الولد المسكين ، انه لا يعرف شيئا .

الا ان الرجل نظر اليها نظرة شرسة صارخا :

– لن اتركه هذه المرة . سوف اسلخ جلده حيا !

وما لبث ان جاء اثنان من الصعاليك فربطا يدى وراء ظهرى واقتادانى الى فناء المنزل ذى البوابة العالية ، ثم علقانى على شجرة الخرنوب الكبيرة ، واوسعنى الرجل السمين ضربا بعصا غليظة . اما ولده الخبيث فقد انزل بى ضربات عنيفة بالسوط . وشعرت بالالم اول الامر ، الا اننى تخدرت بالتدريج الى ان غبت عن وعيى تماما .

عندما افقت اخيرا حاولت ان اتقلب الى جانبى الآخر ، ولكننى لم استطع الحركة . كانت عظامى تبدو وكأنها كسرت ، وفتحت عينى بصعوبة شديدة . اين انا ؟ كنت راقدا على ضفة نهر ، وكان

يجلس بجانبى شيخ عمره اكثر من خمسين عاما . سألته بصعوبة :

ـ انت . . .

ولكن لسانى كان ثقيلا ، فانعقد عن الحركة .

ـ انا احد المارة . واسم عائلتى ياو . لقد رأيت حاكم القرية يضربك ويلقيك هنا . وخشية ان تأكلك الحيوانات المفترسة مكثت ارقبك مدة طويلة من الزمن .

ـ شكرا لك . . .

ثم تذكرت فجأة صرتى الصغيرة وحركت رأسى اتلفت يمينا وشمالا .

سألنى الشيخ :

ـ عم تبحث ؟

ـ صرتى .

ـ لقد اخذها حاكم القرية .

فكل ما بقى لدى الآن هو الملابس التى تستر جسدى . وكانت سترة امى التى لبستها ممزقة شر تمزيق بسبب ضربات هؤلاء الاوغاد . ولكننى كنت مطمئنا عندما تحسست زاوية السترة ووجدت النجمة الحمراء فى مكانها . لقد جعلتنى افكر مرة اخرى فى يانآن . . . لا بد ان اواصل سيرى نحوها .

حاولت الوقوف ولكن لم استطع حتى بمساعدة الشيخ الطيب . قال لى الشيخ :

– من الافضل الا تتحرك . ان جسمك ملئ بالكدمات .

– ولكن يا شيخ ، لا بد ان اذهب !

– الى اين ؟

اصبحت فى هذا الوقت على ثقة بأنه رجل طيب . ولهذا اخبرته :

– الى يانآن .

نظر الشيخ حوله قبل ان يسأل :

– الى يانآن ! لماذا ؟

– لابحث عن والدى .

قال بآهة خفيفة :

– ولكنها بعيدة ، بعيدة جدا !

– على ان اذهب الى هناك مهما كانت بعيدة !

– كيف تستطيع المشى ؟ انظر الى ساقيك !

رفعت احدى ساقى ، فبدت كأنها مصنوعة من الخشب ، ولم تكن الاخرى بأحسن منها . اما المفاصل فكانت صلبة لا تنحنى مطلقا ، الا اننى لا بد ان اصل الى يانآن ، الى ابى ، الى الجيش

الاحمر .. فحاولت ان احبو .

قال الشيخ فى عطف ظاهر :

– من الخير لك ان تذهب الى بيتى اولا ، وتسكن معى لفترة من الزمن .

– اين تسكن ؟

– فى قرية ياوتشى ، المسافة حوالى عشرة لى من هنا .

بدت هذه المسافة صعبة جدا بالنسبة لى ، فما العمل ؟ ! لكن الشيخ قال لى :

– دعنى احملك على ظهرى .

لقد تأثرت كثيرا حتى ان الدموع انهمرت من عينى ، فقلت له :

– كيف يمكننى ان ارد صنيعك ! فطول حياتى لن انساك ابدا .

قال بحزم :

– ان لدى فردا فى يانآن ايضا يابنى ! ابنى هاى تشيوان ذهب مع الرئيس ماو فى المسيرة الكبرى . اننا كالعناقيد من شجرة عنب واحدة !

٨

حل الظلام عندما وصلنا بيت الشيخ ياو ، فأنزلنى فى الغرفة التى لم اجد فيها احدا ، ثم نادى : " اسرعى وتعالى الى هنا يا ام شياو هونغ ! "

بعد لحظة دخلت امرأة عجوز الغرفة ، ولم تقع عيناها على حتى

سألت مندهشة :

ــ من هذا الولد ؟

قدمت نفسى اليها :

ــ اسم عائلتى بان واسمى الكامل بان تشن شان .

ــ من اين جئت ؟

قبل ان اجيبها اوضح الشيخ ياو :

ــ التقطته من على ضفة النهر . . لقد ضربه حاكم القرية حتى كاد يموت . اسرعى واحضرى ماء ساخنا لغسل جروحه .

وبعد ان نادت المرأة العجوز " يا شياو هونغ ، اسرعى وسخنى بعض الماء " ، دخلت الغرفة بنت فى حوالى الثانية عشرة من عمرها .

وفى اثناء تحضيرها للماء اخبرنا الشيخ نحن الثلاثة بفكرته ، فقال للمرأة العجوز اولا :

ــ من الآن فصاعدا يبقى معنا تشن شان . واذا سأل شخص ما فقولى انه ابن اختك .

ثم قال لى :

ــ تناديها بالخالة وانا بالخال .

واضاف حديثه مشيرا الى البنت التى كانت تضرم النار فى الموقد :

ــ انها ابنتى شياو هونغ ، وانتما الاثنان ستكونان ابنى الخالة .

ابتسمت لى البنت وهى تضيف اعواد الحطب الى الموقد . وفى الحقيقة كنت اشكر الشيخ ياو من صميم قلبى ، بيد اننى سوف لاامكث هنا مدة طويلة ، لاننى سأذهب الى ياناَن حالما تتحسن صحتى فقلت له :

ــ شكرا ، يا شيخ ياو ! لا بد ان اذهب الى ياناَن بعد ان تلتئم

جروحى . قال لى الشيخ ياو :

ـ لايمكن ان تذهب هكذا على غير هدى . عليك ان تعتمد على منظمة الحزب .

كنت فى الطريق قد اخبرت الشيخ ياو بقصتى منذ ان غادرت منزل العم سونغ ، حتى اخذت الى حانوت الارز للعمل تحت التمرين ، لذلك سبق ان عرف امرى كله . وواصل حديثه :

ـ ان ما يجب ان تفعله الآن هو ان تجد العم تشاو والامين وو .

ـ ولكن كيف اعثر عليهم !

ـ امكث هنا الآن ، وانا سأساعدك على العثور عليهم .

وقالت لى ام شياو هونغ ايضا :

ـ ابق هنا ! بيتنا بيتك !

اذن ، فقد وجدت لنفسى عائلة جديدة ! وهكذا بقيت فى بيت الشيخ ياو .

كم كانت الحياة فى بيت الشيخ ياو تختلف عن الحياة فى حانوت الارز ! هناك كثيرا ما كنت اشعر بعبء ثقيل يجثم على صدرى ، بينما وجدت هنا الدفء والحنان . واصبحنا نحن الاربعة ، الخال ياو والخالة والاخت شياو هونغ وانا ، نشترك فى مشاعر وآمال واحدة ، فاحسست كأننى احد افراد عائلتهم .

لقد قاح الجرح الذى على ساقى اليمنى بسبب تعرضها للضربات القاسية ، ولم يبرأ حتى بعد علاجه لمدة شهرين ونصف ، وكنت قلقا بشدة ، كيف استطيع ان اقطع مسافة الـ ٢٥ الف لى الى يانآن ! ذات يوم ماطر ، كنا نحن الاربعة جالسين فى البيت نتجاذب

اطراف الحديث ، فأشرت الى الجرح فى ساقى قائلا :

– فى قرية ليوشى ضربنى هو هان سان ، وفى حانوت الارز ضربنى صاحب الحانوت شن ، ثم فى قرية شوانغتشاخه ضربنى الرجل السمين ايضا . فبأى حق يضربنى هؤلاء الاوغاد . . . ؟

قالت الخالة :

– ان لديهم المال والسلطة .

اضاف الخال :

– فى ايديهم بنادق ، ولهم " فصيلة حفظ الامن " ودائرة الشرطة . . .

تنهدت الخالة وهى تقول :

– نعم ! انهم مع كبار موظفى الحكومة الرجعية يتنفسون من انف واحد . قلت :

– اذا ظلت الحكومة الديمقراطية للعمال والفلاحين موجودة هنا ، ولم يغادرنا الجيش الاحمر ، فسنربط هؤلاء الاوغاد بالحبل ، ونطوف بهم فى شوارع القرية ، وعلى رؤوسهم الطراطير الورقية كما حدث لهو هان سان فى السابق . ولكن الحالة الآن هى ان هؤلاء الطغاة يطؤوننا بنعالهم بكل شراسة .

وقال الخال :

– سيعود الجيش الاحمر ، وسيأتى يوم يتحرر فيه الفقراء بكل تأكيد .

كان الخال يعرف كثيرا عن الثورة ، فقص علينا قصصا كثيرة عنها ، وصرنا نتمنى بمزيد من اللهفة ان يعود الجيش الاحمر مبكرا .

فى خريف ذلك العام سمعنا من اناس جاؤوا من المدينة ان الغزاة اليابانيين قد استسلموا ، واننا احرزنا النصر فى حرب المقاومة ضد اليابان ، فشعرنا جميعا بالسعادة . وقلت للخال ضاحكا :

– سيعود ابى والاخ هاى تشوان والجيش الاحمر عما قريب.

ولكن الخال قال فى هدوء : "لننتظر ونر . "

ولكن لماذا ؟ فكرت فى نفسى : " ألم يزحف الجيش الاحمر الى الشمال لقتال الغزاة اليابانيين ؟ والآن وقد استسلموا ، لابد ان يعود الجيش الاحمر .

ولم يمض وقت طويل حتى ذهب الخال الى حاضرة المحافظة ليبحث عن العم تشاو ، ولكنه لم يعثر له على اثر . وما سمعه ، ان رجعيى الكومينتانغ كانوا يهرعون من المؤخرة للقبول باستسلام الغزاة اليابانيين ، غير ان جيش الطريق الثامن للحزب الشيوعى ، الذى تحمل مشقات القتال فى حرب المقاومة ضد اليابان ، منعهم من اغتصاب ثمار الانتصار ، لانهم خانوا حرب المقاومة وخربوها بالفعل . كما سمع ان القتال قد ينشب .

تطور الوضع كما قال الناس ، واصبح متوترا . فقد اغتصب " جيش الحكومة المركزية " وعصبة الكومينتانغ الحاكمة كل ما وقعت ايديهم عليه . ومنذ جاء جيش الكومينتانغ آخذا فى سلب الحبوب وفرض الضرائب ، اصبحت الحياة قاسية الى ابعد الحدود بالنسبة لابناء الشعب .

ذات يوم ، عندما كنت عائدا مع اختى شياو هونغ بعد ان جمعنا الحطب ، رأينا جنديين من جيش الكومينتانغ يقفان عند باب بيتنا ،

ومراقب العائلات العشر يقف سادا له . وفى داخل الغرفة كان ضابط يحمل مسدسا ، فسمعت الخال يقول :

– بالامس فقط كنتم هنا ، واخذتم النقود القليلة التى كانت لدى ، واليوم تعودون مرة اخرى !

فقال الضابط :

– ما اخذناه بالامس كان نقود " الترحيب " ، واليوم نريد نقود الترفيه ! وتزلف المراقب اليه قائلا :

– نعم ! يجب تسلية جيش الكومينتانغ لانه خاض معركة القتال ببسالة واحرز مآثر عظيمة .

فحدق فيه الخال وهو يسأله :

– ما المآثر العظيمة ؟

لم يكن لديه ما يجيب به ، ولم يجد ما يفعله سوى النظر باستعطاف الى ذلك الضابط الذى زمجر :

– سلم نقودك ولا تثرثر كثيرا !

– ليس لدى نقود ، لقد اخذتموها كلها منى .

هدر مرة اخرى :

– ليس عندك نقود ؟ اذن فاعطنا ارزا بدلا منه .

– ليس لدى ارز كذلك ، حتى لاطعام عائلتى .

صوب الضابط مسدسه نحو الخال وهو يشتم مهددا :

– انت ايها الصعلوك العجوز ! ترفض دفع الرسوم ؟

وفى هذه اللحظة خرج المراقب وهمس شيئا فى اذن احد الجنديين الواقفين عند الباب ، فدخل الجندى الى الغرفة ورفع صوته قائلا :

– يا نائب قائد الفصيلة ، ان ابن هذا الرجل العجوز شيوعى !

فصرخ نائب قائد الفصيلة وهو يستشيط غيظا :

– آه ، اذن فالامر كذلك ! لا عجب فى انك تقاوم مطلبى اذ ان ابنك جندى فى جيش الطريق الثامن . من الافضل لك ان تعرف مركزك ، واذا لم تقدم نقودك الى فسوف القى عليك القبض !

قال الخال بهدوء :

– افعل ما يحلو لك ، فليس عندى نقود ولا ارز .

وصفع نائب قائد الفصيلة الملعون خالى على وجهه ، وصرخ وهو يدير ظهره لجندييه :

– فتشا المنزل !

وبعد برهة اصبح كل شىء فى البيت مقلوبا رأسا على عقب . وكان الخال الغاضب يحاول ان يدفع هذين الجنديين جانبا ، فسدد اليه احدهما ضربة بمؤخرة بندقيته فخر على الارض ، وثارت ثائرته سائلا :

– اى نوع من الجيوش انتم ، لماذا تنهبون الشعب ؟

وعندما شاهدت ذلك غضبت غضبا شديدا ، فأخذت الفأس وهممت بالاندفاع الى داخل الغرفة ، ولكن شياو هونغ جذبتنى الى الخلف خوفا من ان ازيد الامور تعقيدا ، بينما اومأ لى الخال بعينيه وقال :

– دعهم ينهبون !

وفجأة وجد احد الجنديين سلة ممتلئة الى نصفها بالارز ، فصرخ مبتهجا ثم انصرف خارجا من الغرفة بالارز والسلة معا .

كيف نصبر على هذا ! وحتى شياو هونغ الصغيرة كانت مغتاظة . قال الخال وهو يضغط على اسنانه :

– هؤلاء وحوش ! لن نستطيع ان نعيش حياة حسنة قبل ان نقضى عليهم .

وفى حقيقة الامر اصبحت حياتنا اقسى منذ جاء جيش الكومينتانغ . قالوا اننا اهالى العائلة الحمراء ، واعتبرونا اقذية فى عيونهم ، انهم يكرهوننا ويعاملوننا معاملة سيئة ، ويفكرون فى ابادتنا بكل وسيلة ممكنة .

كان الخال يستفهم خفية الاخبار عن الحزب الشيوعى والجيش الاحمر فى كل مكان ، فعلمنا آخر الامر ان الجيش الاحمر قد اعيدت تسميته ليصبح جيش الطريق الثامن والجيش الرابع الجديد ، واصبح الآن جيش التحرير الشعبى . كما علمنا ان هذا الجيش الذى كان عدد افراده عشرات الآلاف من الرجال ، اصبح له الآن اكثر من مليون من الرجال فى طول البلاد وعرضها ، وهو يقاتل قوات الكومينتانغ فى الشمال . وفرحنا فرحا عظيما عندما سمعنا ان عدد افراد الجيش الاحمر قد كبر ، واصبحت له اسلحة اكثر ، وان مناطق القواعد قد اتسعت . الا اننا كنا بعيدين جدا عن جيش التحرير . اردت ان ابدأ رحلتى الى الشمال مرة أخرى لابحث عنه ، ولكن الخال لم يوافق على ذلك وقال : يجب علينا ان نجد منظمة الحزب قبل ذهابى .

حاولنا مرارا وتكرارا ، وانتظرنا وانتظرنا الى ان مضى عام آخر .

ذات يوم استدعى الخال الى المراقب ، وبعد وقت طويل عاد الى البيت وهو يبدو متجهم الوجه . وعندما سألته الخالة عن ماهية الامر لم يجب وظل ينفث دخان غليونه ، فسألته بدورى :

– ماذا فى الامر .

قال الخال مصرحا فى النهاية :

ـ انهم يريدون تجنيدك فى جيش الكومينتانغ !

قالت الخالة بصورة قاطعة :

ـ لايجوز ذلك !

اردف الخال :

ـ اذا لم يذهب فان علينا ان ندفع بيكولين من الارز عوضا عن ذلك ، هذا ما ذكره المراقب .

سألت مندهشا :

ـ بيكولين ! من اين نحصل على بيكولين من الارز ؟ !

ـ انهم يعرفون جيدا اننا لا نملك بيكولين من الارز . انما ذكروا ذلك لاحراجنا فقط .

كانت الخالة قلقة فسألت :

ـ ماذا نصنع اذن ؟

قلت بعزم :

ـ سأذهب شمالا لابحث عن جيش التحرير !

نطق الخال بلهجة حاسمة :

ـ سأذهب انا الى الجبال غدا لاجمع بعض الاعشاب الطبية لبيعها حتى تكون لك نقود لسفرك .

لقد تأثرت الى حد منعنى من القيام بأى عمل سوى النظر الى الخال من غير ان انبس ببنت شفة .

وفى ذلك المساء، حضرنا الادوات التى كنا نحتاج اليها فى تسلق الجبال .

وفى صباح اليوم التالى بعد الفطور ، وعندما كنا نتأهب للبدء بالسفر ، قال الخال لى ولشياو هونغ :

– عليكما ان تحملا فأسين وعصوين من الخشب لحمل الحطب .
سألته :
– يا خال ، هل سنجمع اعشابا طبية كثيرة تحتاج الى شخصين لحملها ؟
اجاب الخال :
– كيف يمكننا ان نجمع اعشابا طبية بهذه الكثرة ؟ نأخذ هذه معنا لحمل الحطب .
ولكننى لم افهم فهما جيدا ما قصده، ولهذا اوضح لى :
– نأخذها كلها كوسيلة للتستر . اذا حملنا كمية من الحطب فسوف لا يشك احد فى امرنا ، وعلينا الا نجذب انتباه رجال جيش الكومينتانغ .
لا شك ان الخال كان على حذر تام .
عندما هممت بالسفر للبحث عن والدى وجيش التحرير ذكرت سترة امى والنجمة الحمراء المخبأة فى احد اطرافها ، فلففتها مع حاجياتى الاخرى فى صرة صغيرة . وناولتنى الخالة اربع بيضات مطبوخة وقالت لى :
– خذ هذه معك .
ثم امسكت بيدى الاثنتين وهى تقول :
– ابحث عن اخيك الكبير هاى تشيوان ايضا اذا تمكنت .
اكدت لها :
– سافعل ذلك . وعندما اعثر عليه سأعود معه .
ودعتنا الخالة عند الباب ، ونظرت خلفى بعد ان سرنا مسافة ،

فرأيتها لا تزال واقفة عند الباب .
وصلنا ممر جبل ، حيث شمخت امامنا قمم عالية يكاد يحجبها الضباب والسحب . وكانت الدروب وعرة ، وكنا نسير فى الاودية حينا ونتسلق الجبال حينا آخر . وحوالى منتصف النهار توقفنا تحت قمة من القمم العالية . ونظرت الى اعلى ، فشاهدتها مغطاة بكثير من اشجار الخيزران والنباتات المعرشة ، كما شاهدت نسرين يحلقان فى الفضاء . كانت القمة شديدة الانحدار حتى بدت بعض اجزائها كصخور ناتئة تتدلى فى الفراغ . واستعد الخال للتسلق ، فربط السلة على كتفه والحزام الجلدى للحماية على خصره ، ثم خلع حذاءه وبدأ يتسلق خطوة خطوة مستندا الى خطاف حديدى مربوط بطرف العصا المحمولة فى يده .

جمع الخال اعشابا طبية عند وسط الجبل ، بينما انا وشياو هونغ قمنا بقطع الحطب فى اسفل الجبل . كنت انظر الى الاعلى احيانا ، فأرى الخال معلقا فى الهواء يقتلع الاعشاب ويضعها فى السلة . حقا ، اننى اشكره من صميم قلبى ! قلت فى نفسى : لقد

انقذنى من الموت ، وضمنى الى عائلته لاننى ابن رجل من الجيش الاحمر رغم انه لا علاقة بيننا فى الماضى . والآن راح يتسلق هذا الجبل الشامخ لجمع الاعشاب الطبية مخاطرا بحياته ، كى يوفر لى نقودا للسفر ، حتى اتخلص من التجنيد فى جيش الكومينتانغ ، وابحث عن جيشنا ، فما اعظم هذا الشعور الطبقى !

لاحظت شياو هونغ اننى توقفت عن قطع الحطب ، فسألتنى عما كنت افكر . ثم اردفت سائلة :

– هل ستعود بعد ان تجد فرقة العصابات ؟

اجبتها :

– كلا ! ولكن سأعود بعد القضاء على رجعيى الكومينتانغ وحرسهم الابيض .

– واذا ما استغرق القتال وقتا طويلا ؟

– سأقاتلهم طوال حياتى اذن .

نظرت الى شياو هونغ وابتسمت . سألتها :

– هل تشتاقين الى اخيك الكبير هاى تشيوان ؟

– نعم ، بالطبع ! الا اننى لا اتذكر محياه ، فقد افترقنا عندما كنت فى الثالثة من عمرى .

– هل تعلمين اننى اريد ان اكون مثل اخيك الكبير هاى تشيوان . . سأنضم الى جيش التحرير واناضل سنوات طويلة حتى يتم القضاء على الحرس الابيض كله ، من ثم نبدأ بناء الاشتراكية .

– اذن ، ستعودان سويا فى ذلك الوقت .

رفعت شياو هونغ عينيها ، ورأت نسرا يحلق فوق رأسينا ، فواصلت

حديثها :

– كم اتمنى ان اذهب معك لخوض القتال ضد الحرس الابيض! انت واخى مثل ذلك النسر تطيران الى ذلك العلو وذاك البعد !

فراقبت النسر ينشر جناحيه الواسعين ، ويحلق فى الفضاء مندفعا الى اعلى فاعلى ، حتى فى السحب . . .

جمعنا انا وشياو هونغ اربع حزمات من الحطب ، ونزل الخال من قمة الجبل يحمل الاعشاب الطبية . واسترحنا لحين من الوقت ، ثم قال الخال لشياوهونغ :

– عودى انت اولا الى البيت ، واخبرى امك بأننى سأسير جزءا من الطريق مع تشن شان .

فاومأت شياو هونغ برأسها ، واردف الخال :

– واذا سألك اى شخص عنا ، فقولى له فقط اننا ذهبنا لزيارة بعض الاقارب .

هزت شياو هونغ رأسها ايجابا مرة أخرى . واضاف الخال من جديد :

– واذا ما حضر المراقب لاخذ الارز ، فأخبريه بأننى ذهبت لاستلفه من غيرنا ، وسأقدمه له فيما بعد .

فهزت شياو هونغ رأسها موافقة ، ولم تقل كلمة واحدة ، بل وقفت على صخرة كبيرة ترقبنا ونحن ننزل من الجبل ، وكل منا يحمل حزمتين من الحطب على عصا خشبية .

وصلنا الى حاضرة المحافظة ، ودخلنا الى صيدلية كبيرة لبيع الاعشاب الطبية تاركين حزمات الحطب خارج بوابتها . وعندما رأى

موظف الصيدلية الاعشاب الطبية التى وضعها الخال على الطاولة ، قال فى فرح وابتهاج : " هاقد حصلنا اخيرا على هذا الدواء ! " ثم استدار ونادى باتجاه داخل الغرفة :

— يا سيد هان ، لقد احضر شخص الدواء الذى يتحرق قائد للفوج هو للحصول عليه .

جاء على صوت النداء من الداخل رجل طويل نحيل وعلى عينيه نظارة ، فالقى نظرة على الدواء واسرع قائلا :

— خذه ! خذه !

ثم اضاف قائلا للخال :

— احضر لنا اكثر من هذا فيما بعد .

وبعد ذلك دفع لنا ثمن الاعشاب الطبية . وحينما خرجنا من الصيدلية رأينا ثلاثة من جنود الكومينتانغ ، يرتدون ازياء صفراء اللون ، يقفون بجانب حزمات حطبنا وهم يصرخون :

— لمن هذا الحطب ؟

تقدم الخال بخطوات قائلا :

— انه لى .

قال احدهم :

— بعه لنا .

كانت حزمات الحطب الاربع هذه نستعملها كوسيلة للتستر ، ولم تكن للبيع ، ولكن نظرا لان الجنود ارادوا شراءها فقد حدد الخال لها سعرا مرتفعا وقال لهم :

— عشرة يوان لكل هذه الحزمات .

قال جندى آخر :

ـ حسنا ، تعال معنا . سوف تتسلم نقودك عندما تصل الى معسكرنا.

فلم يكن امامنا الا ان نحمل الحطب ونتبع الجنود ، فسرنا مسافة ليست قصيرة حتى وصلنا الى فناء واسع كان به عدد كبير من جنود الكومينتانغ يعسكرون ، فنقلنا الحطب الى المطبخ . وعندما سأل الخال الجندى عن النقود قال له :

ـ لا نقود لنا اليوم ، عد بعد نصف شهر لتأخذها .

ـ ولكننا نحتاج الى النقود . نحن نبيع مقابل الدفع فورا .

ـ ويلك ! ان نصف شهر ليس مدة طويلة . لا بد ان تقدمها لنا حتى اذا لم ندفع اى شيء لك !

كان الجدال معهم عديم الجدوى ، ولهذا حملت الحطب غاضبا وهممت بالسير ، فأمسك احد الجنود بى ، وركلنى على ساقى قائلا :

ـ الى اين تريد ان تذهب ؟ ضع الحطب على الارض !

فرميت الحطب على الارض وقلت له فى غضب شديد :

ـ ماذا تعنى بفعلتك هذه ؟ تشترون الاشياء ولا تدفعون ثمنها ، وفوق ذلك تضربون الناس !

ثم نشب الشجار حتى لفت نظر احد الضباط ، فجاء من بيت ذى حيطان مرتفعة وسأل :

ـ ما كل هذه الضجة ؟

قال الخال مشيرا الى الجندى :

ـ انه يريد شراء حطبنا ، ولكنه يقول بأنه لايملك نقودا ليدفع ثمنه . ونحن بحاجة الى النقود الآن .

" آه ! " ارسل الضابط صوتا ممدودا ثم قال :

– كم سيكون ثمنه ؟ لا حاجة الى الشجار وسوف لا نظلمك .

ومشى احد الجنود الى الضابط وهمس فى اذنه :

– نحن لم نتسلم مرتباتنا منذ شهرين ، وليست لدينا اية نقود ، وكيف ...

خفض الضابط بصره ، واستدار على عقبيه وسار نحو البيت .

كنت ادرك تمام الادراك ان هذا الضابط كان يتظاهر بالعدالة ، وفى الحقيقة ان هذا الضابط وامثاله ، كلما كبرت رتبهم ، ازداد استغلالهم للناس قساوة . وكيف نتوقع ان يدفعوا لنا ثمن الحطب . ان ذلك سلب ونهب مما لا يدع مجالا للشك .

فى ذلك الوقت وصل الرجل الطويل النحيف الذى شاهدته فى الصيدلية ، وهو يحمل علبة ملفوفة بالورق الاحمر ، فتوجه الى الضابط مباشرة وخاطبه :

– يا قائد الفوج هو ، لقد احضرت لك الدواء الذى تحتاجه ، وهو طازج جئنا به من الجبال هذا الصباح .

كشف الضابط عن اسنانه ضاحكا وهو يقول :

– حصلت عليه ، حسنا ! اشكرك . ان امرنا هذا قد اتعبكم كثيرا .

قال الرجل ذو النظارة وهو ينحنى قليلا :

– هذا واجبى . لكن هذه الاعشاب الطبية النادرة يصعب الحصول عليها جدا ، ولا سيما الطازجة منها . لقد ارسلنا شخصا خاصا الى قمم الجبال ليقطفها .

سأل الضابط وهو يأخذ العلبة :

– هل الدواء فعلا صالح لازالة آثار الحروق ؟

اعتدل الرجل ذو النظارة وقال وهو يتظاهر بالجد :

– طبعا ! ان هذا الدواء يا قائد الفوج هو يرخى الانكماش ، وينشط الدورة الدموية ويدفع نمو الخلايا ، وينعش طاقة الحياة !

وبعدها اخرج قطعة من الورق وقال مرة ثانية :

– ها هى ارشادات استعمال هذا الدواء .

– اشكرك شكرا جزيلا .

بعد ان انتهى الضابط من الكلام ، استدار نحو الغرفة مناديا : " يا مساعد ما ! "

فصرخ رجل " هنا ! " واندفع من داخل الغرفة ، ولا شك انه المساعد ما . قال الضابط له :

– ارسل هذا الدواء بسرعة الى قرية ليوشى ، واخبر ابى ان السيد هان صاحب الصيدلية تاى هو تانغ احضره خصيصا له . انه يداوى آثار الحروق . اذهب بالدراجة !

اجابه المساعد ما :

– لا داعى لارساله ايها القائد ، لاننا تسلمنا قبل قليل رسالة من والدك مفادها انه سوف يحضر بعد ظهر اليوم .

ماذا ؟ ! . . قائد الفوج هو ! ووالده فى قرية ليوشى ! الدواء لعلاج آثار الحروق ! ويحضر بعد ظهر اليوم ! كانت الشمس قد مالت نحو الافق الغربى ، وعدوى اللدود سيحضر الآن ! تبادلت مع الخال النظرات وتركنا ذلك المكان فورا .

لم نكد نصل الى باب الفناء حتى سمعنا صوت جرس الجنركشة ، وعندما رفعت نظرى اليها ، رأيت رجلا يبدو فى اكثر من الخمسين من عمره ، ويرتدى جلبابا رمادى اللون وقبعة سوداء من الصوف ، وكانت على وجهه آثار حروق ، الا ان عينيه مازالتا تحملان نظرة الذئاب المفترسة . اذن فهو الطاغية المحلى هو هان سان الذى نجا من النار ! وحينئذ كاد دمى يغلى فى عروقى وقبضت يدى بشدة . عندما وجه هو هان سان نظرته الى ناحيتنا تقدم الخال امامى ليسترنى بجسمه ، وحين كان هو هان سان ينزل من الجنركشة انعطفنا من الركن الى شارع آخر .

مشينا بسرعة وخرجنا من حاضرة المحافظة .

٩

بعد الخروج من الحاضرة سرنا مسافة عشرين لى اخرى . لقد بدأ الظلام يسدل استاره رويدا رويدا ، فوجدنا فى احدى القرى الصغيرة مكانا نأوى اليه . وفى اليوم التالى ، عندما اراد الخال ان يسير معى لمسافة اطول قلت له :

— ارجوك الا تفعل ذلك يا خالى . لقد طعنت فى السن واصبحت اعجز من ان تتحمل رحلة شاقة كهذه .

واصر الخال على صحبتى لمسافة اخرى ، اذ كان غير مطمئن على وانا اذهب وحدى . فقلت له :

— يا خالى ، لاتقلق على ! لقد انصقلت كثيرا خلال هذه السنوات الحافلة بالمشقات والصعوبات ، وعرفت كيف اعامل اولئك الاوغاد .

اخرج الخال من جيبه النقود التى نالها بعد بيع الاعشاب الطبية وقال : " خذ هذه معك . " وعندما رأى اننى لم آخذ الا ورقتين منها ، وضعها فى يدى قائلا : " خذها كلها ! "

قبلت النقود متشكرا من صميم قلبى على كل ما فعله الخال من اجلى طوال هذه السنوات ، وسرت فى طريق وحيدا مرة اخرى .

عند اصيل اليوم التالى وصلت الى بلدة صغيرة ، ودخلت احد الانزال . ولم يكن بهذا النزل نزلاء ، بل جلس فيه صاحبه وحيدا ، انه رجل يبدو فى اكثر من الخمسين من عمره . وبعد ان اتم ترتيب سريرى ، استلقيت عليه ، وغططت فى النوم فورا ، لاننى كنت فى غاية التعب .

صحوت فى منتصف الليل على صوت ضربات قوية على الباب . " افتح الباب ! " " افتح الباب ! " صرخت اصوات من الخارج . وكانت الضربات نفسها على الابواب المجاورة . وفى غمضة عين نزلت من السرير ، وقبضت على صرتى الصغيرة ، وهربت من النافذة . رأيت ، وانا فى الظلال خارج النافذة ، صاحب النزل يتجه الى الباب وهو يسأل :

– من هناك ؟ ماذا تريد ؟

سمعت احد الناس يقول وهو يركل الباب :

– اسرع بفتح الباب !

فتح صاحب النزل الباب ، فاقتحم النزل عدد من الناس كان احدهم يرسل ضوء مصباح الجيب فى الظلام ، فاذا بهم مجموعة من جنود الكومينتانغ . تسلقت حائطا منخفضا بجانبى ، ومنه صعدت الى سطح الغرف لأرى ما كان يجرى هناك .

سأل صاحب النزل فى قلق :

— ماذا تريدون ؟

— قدم لنا رجالا ليحملوا متاعنا .

— كل يومين او ثلاثة ايام تأتون لاخذ الحمالين ، فلا احد يجرؤ على الاقامة هنا .

سقط ضوء مصباح الجيب على صاحب النزل ، فقال :

— هل تقصدنى انا ؟ ولكننى شارفت الستين ، بل انا مريض . ومن الصعوبة ان احمل شيئا .

تحول الضوء فجأة الى السرير حيث نمت :

— اين صاحب هذا السرير ؟

نظر صاحب النزل الى ما حوله فى حيرة وقال :

— هرب .

— اذن فقد هرب ، غير انك لا تزال هنا . تعال معنا مريضا كنت ام معافى !

وتقدم جنديان يحملان البندقية لجر صاحب النزل . رغم كل حججه واحتجاجه ، الا انها لم تجد فتيلا . فضربه الجنود وجروه معهم .

انبطحت على السطح ، وكان بكاء النساء والاطفال يترامى الى مسمعى من الفناء الخلفى . كم كنت غاضبا ! كان الليل مظلما ، الا ان ذلك المجتمع القديم كان اكثر منه ظلاما . فلا بد من تحطيمه !

تلاشت الضوضاء ، وعادت الشوارع الى سكونها . حبوت نازلا من السطح ، وغادرت النزل متجها مرة اخرى الى الشمال فى خطوات واسعة .

نحو الشمال كنت اسير ، اسير ليلا ونهارا ، سواء أكانت السماء

ممطرة ام صافية . كنت لا افكر الا فى شىء واحد ، ان اجد منظمة الحزب وجيش التحرير فى اقرب وقت ممكن ، وعندها يمكننى ان انضم الى صفوف الجيش الثورى ، وان اقاتل سويا مع جيش التحرير تحت قيادة الرئيس ماو ، للاطاحة بالمجتمع القديم المظلم والقضاء على اسراب الذئاب من امثال هو هان سان .

وهكذا سرت . . وسرت ، اسأل من فترة لاخرى عن الوضع . ردد الناس ان جيش التحرير كان يقاتل جيش الكومينتانغ شمال نهر اليانغتسى ، وان اماكن عديدة هناك قد تم تحريرها . وشجعنى هذا الخبر تشجيعا عظيما ، فاتجهت نحو نهر اليانغتسى . وفى النهاية وصلت اليه بعد ظهر احد الايام .

يا له من نهر جبار يهدر ويزبد ! فى قريتى شاهدت انهارا كثيرة وسبحت فيها ايضا ، الا انها لم تكن انهارا كهذا . وقفت على شاطئه ، فلم ار شيئا سوى هذا الامتداد الشاسع من الماء ، وبعض القوارب الصغيرة التى كانت تمخر عبابه فى صعود وهبوط مع الامواج . اما الشاطىء الآخـــر فكان محجـــوبا بالضباب البعيد .

سرت على شاطىء النهر

راجيا ان اجد معبرا . اخبرنى بعض الناس ان معبر يانغجياوكو على بعد ثلاثة لى . وحينما وصلت هناك ، لاحظت مجموعة من الناس محتشدين . وعند مدخل المعبر وقف اثنان من جنود الكومينتانغ يحملان البندقية ويصرخان نحو الراغبين فى عبور النهر : " ابرزوا بطاقة المرور ! ابرزوا بطاقة المرور ! "

كيف ابرز " بطاقتى " . لا شك ان فرصتى فى العبور من هذه الجهة نادرة جدا ، ولهذا عدت ادراجى تفاديا للمتاعب . وبينما كنت اسير ، نظرت الى نهر اليانغتسى وفكرت : مهما تكن واسعا عميقا ، ومهما تكن امواجك مرتفعة ، فلا بد ان اعبرك الى الجانب الآخر بطريقة ما !

ان عبور نهر اليانغتسى سباحة قد يلفت الانظار ويثير الشبهات ، فجلست على شاطىء النهر انتظر المغيب . اخذت الشمس تنحدر الى مغربها قليلا قليلا ، تلقى لهيبا قرمزيا على صفحة الماء . وساورتنى افكار متلاحقة مثل تلك الامواج . اذا ما استطعت ان اعبر النهر ، واواصل سيرى شمالا ، فلا بد ان اعثر على جيش التحرير . وعندها سأنضم اليه ، واقاتل معه نحو الجنوب ، ونعبر نهر اليانغتسى مرة اخرى لنحرر المناطق الجنوبية وقريتى ايضا . . .

اخرجت آخر ما تبقى لدى من طعام وتناولته . وفجأة سمعت وقع خطوات سريعة من جهة الشاطىء واصوات رجال يطاردون احد الناس . قمت واقفا بسرعة لانظر ، فرأيت شابا يعدو فى اتجاهى ووراءه اربعة من جنود الكومينتانغ . كان الجنود يصرخون " اوقفه ! " وعندما اقترب منى الشاب نظر الى نظرة استعطاف فأفسحت له الطريق حتى يمر ،

ولكن الجنود واصلوا مطاردته ، واوشكوا ان يدركوه ، فسمعت صوت شيء يسقط فى الماء . لقد قفز الى النهر ! ولعدة ثوان كان يظهر ويختفى فى الامواج المتدحرجة ، فأطلقوا عليه بضع طلقات ، وبعدها اختفى الشاب نهائيا .

اثارت هذه الحادثة غضبى الشديد . وعرفت انهم سيعودون ، بلا شك ، لمعاقبتى ايضا . وعندما هممت بالانصراف سمعت صوتا جاء من الوراء : "اقبضوا على هذا ! " ادركت انهم يقصدوننى فأطلقت ساقى للريح بكل ما اوتيت من القوة . ولكن لسوء الحظ اصطدمت بعشرة او اكثر من جنود الكومينتانغ اتوا من الجهة المقابلة . فألقوا على القبض واخذونى الى معبر يانغجياوكو .

على احد قوارب العبور كان ستة من الشباب مقيدين معا فى صف واحد . فدفعنى الجنود الى القارب ، ويداى مقيدتان وراء ظهرى ايضا ، فأصبحت السابع . ترك جنديان لحراستنا ، بينما توجه الباقون لتناول الطعام . كان هذان الجنديان يقفان فى احد جانبى القارب عابسين متذمرين .

اخبرنى هؤلاء الشبان بأنهم جميعا جندوا قسرا من قبل الكومينتانغ . اما سابعهم فهو ذلك الشاب الذى تمكن من الفرار وقفز فى النهر ، وقتل بالرصاص .

لقد فررت من قرية ياوتشى مخافة ان اكون طعاما للمدافع . وها انا الآن مقيد ، يواجهنى المصير نفسه ! يا نهر اليانغتسى ، كم من الم وحقد تحمله ، وانت تندفع الى جهة الشرق ! وكيف اتركهم يستولون على بهذه السهولة ! كلا ! نظرت الى الستة الآخرين الذين كان الحقد

والكراهية مكتوبين بوضوح على وجوههم . ثم نظرت الى الحارسين الكومينتانغيين ، كان احدهما واقفا قرب طرف القارب ، والثانى جالسا فى جانب القارب على بعد قليل منا ، وبدا كل منهما كئيبا عابسا . راح الظلام يلف النهر بردائه الاسود ، ولم يكن هناك الا عدد قليل من الناس على شاطىء النهر . وعندها فكرت فى طريقة للهروب . " اسمع " ناديت الحارس الواقف عند طرف القارب ، " هل تحملوننا الى الضفة الاخرى ؟ "

– نعم .

– متى ؟

– لا اعرف .

– اعطنى جرعة من الماء لاشرب .

– شىء مزعج !

التقط الجندى طاسا وغرف به الماء حتى نصفه وسار نحوى وقال :

– اشرب !

بعد ان شربت جرعا من الماء ، ضربت برأسى الطاس فى يده عن عمد ، فسقط متهشما الى قطع صغيرة . دمدم الجندى بشىء من اللعنات ، ثم رجع الى مكانه فى طرف القارب .

نظرت الى الحارس الآخر وهو يبدو فى غفوة . ودفعت بخفة الشاب المجاور لى ، واومأت اليه بنظراتى ، ففهم قصدى . وملنا معا يلتقط كل منا قطعة من الطاس المكسور ، وهمست فى اذنه " اقطع ! " فبدأ يقطع الحبل الذى يقيد يدى . عندما تحررت يداى ، قطعت الحبل من يديه ايضا . ولما رأى الخمسة الآخرون ما فعلنا ، تقربوا الينا . ومن حسن

الحظ ان الظلام والصمت الذى التزمنا به قد ابعدا عنا انتباه الحارسين . وضعت يدى وراء ظهرى متظاهرا بأننى ظللت مقيدا ، واومأت الى الشاب المجاور لى ليضرب الجندى الغافى بينما افعل انا الشىء نفسه بالثانى . فانقضضنا عليهما ولم يلبث ان دفع الشاب الجندى الغافى الى النهر ، وجردت الثانى من سلاحه . فاستطار لبه فزعا واراد الفرار ، فأمرته قائلا : " لا تتحرك ! والا فسأطلق النار ! " وعندما شاهد بندقيته مصوبة الى صدره ، وقف مطيعا .

اطلقنا سراح الخمسة الآخرين ، فركضوا الى الشاطىء واختفوا فى الظلام . " بوسعك ان تذهب الآن . " قلت بصوت عال للجندى الذى كان يقف جامدا كالخشب فى مكانه ، فأطلق هو الآخر ساقيه للريح نحو الشاطىء هاربا .

وجدت صرتى الصغيرة وربطتها حول وسطى ، والقيت البندقية فى

النهر مكرها ، اذ ان حمل بندقية اثناء عبور النهر سباحة امر صعب ، بالاضافة الى ان اخذها فى رحلتى نحو الشمال سيثير الانتباه والشبهات بالتأكيد . الآن اصبحت مستعدا لعبور نهر اليانغتسى سباحة ! فرميت بنفسى فى الماء الهائج ، واخذت ارتفع وانخفض مع الامواج المتلاطمة ، وكانت تحتل رأسى فكرة واحدة : لا بد ان اعبر !

كنت قد قطعت مسافة بعيدة حين سمعت صرخات واصواتا صاعدة من الشاطىء ، ثم صوت طلقتين . فضحكت لاننى قد صرت بعيدا عن منالهم وانا اتذوق حلاوة الفوز !

سبحت وسبحت ، لكن الضفة الاخرى لم تظهر بعد . كان الوقت ربيعا ، والماء باردا . ولم اشعر بالبرد فى بادىء الامر ، لاننى كنت متمسكا بفكرة عبور النهر . ولكن الآن صارت ذراعاى وساقاى متخدرة من البرد . وفجأة ثارت الرياح وهاجت الامواج التى راحت تتلقفنى وتتقاذفنى الى اسفل مجرى النهر . اصبحت السباحة الآن صعبة جدا وخارت قواى ، وشعرت بأن الرياح والامواج والجوع والارهاق تهاجمنى من جميع الجهات . ابتلع الظلام كل شىء حولى . ولم اعرف المسافة بينى وبين الضفة الاخرى . ومع ذلك لم يصبنى الخوف ولا اليأس ، اذ اننى على يقين تام بأننى سوف اعبر النهر بنجاح ، واعثر على جيش التحرير حالما اصل الى شمال النهر ، وسوف آخذ الثأر للفقراء الذين كانوا يذوقون مرارة الظلم والتعسف . كانت نجمة القطب لامعة جدا تدلنى على الاتجاه ، وتبعث فى نفسى قوة واملا .

اصبحت السباحة اصعب بكثير ، فكنت اطفو احيانا على وجه الماء تاركا الامواج تحملنى الى الامام ، ثم اعود لاسبح بجهد كبير نحو

الشمال . ولم ادر كم من الوقت مكثت فى الماء . واخيرا سمعت نباح الكلاب فأدركت اننى وصلت الشاطىء الشمالى !

خرجت من الماء منهوك القوى ، وسقطت على الشاطىء . ولكن يجب الا استلقى هنا مبتلا بالماء ومرتعشا من البرد . يجب الا يصيبنى مرض . والا فلن اتمكن من الاستمرار فى البحث عن جيش التحرير ! نظرت الى ما حولى . ما ذلك الشيء ؟ نار ؟ حقا ، كانت نار تتوهج فى مكان غير بعيد عنى . فناضلت واقفا وسرت نحوها .

كان هناك صيادا سمك عجوزان يقومان بطهى وجبة على شاطىء النهر ، واندهشا لرؤيتى . فشرحت لهما :

— سقطت فى النهر . . ارجو ان تسمحا لى بأن اجفف ملابسى على هذه النار .

نظر الى العجوزان من رأسى حتى اخمص قدمى ، الا انهما لم يرفضا طلبى . فجلست امام النار اجفف ملابسى .

سألنى احدهما بعد ان سمع لهجتى :

— انت من غير هذا البلد ، أليس كذلك ؟

اجبته :

— كلا ! انا من جنوب النهر .

سأل الآخر .

— وهل عبرت النهر سابحا ؟ ما الذى دفعك الى هذه المغامرة ؟

عرفت من كلام العجوزين انهما من الفقراء ايضا ، فقلت لهما من غيرما مواربة :

— هربت من التجنيد الاجبارى .

قال الرجل العجوز عاطفا :

ــ حسنا فعلت . حتى الموت غرقا خير من الخدمة فى هذا النوع من الجيش !

تحدثنا وتحدثنا . ولما ادركت ان هذين العجوزين كانا يكنان الكراهية الدفينة لجيش الكومينتانغ ، تشجعت وسألتهما :

ــ هل تعرفان اين جيش التحرير ؟

بدا ان العجوزين قد فطنا الى ما جال فى خاطرى ، فقالا لى :

ــ واصل السير شمالا وسوف تعثر عليه . وحيثما يوجد القتال يوجد جيش التحرير .

انهما على حق ! وعند فجر اليوم التالى ، ودعت الصيادين العجوزين واتجهت الى "حيث يوجد القتال" .

استفسرت فى الطريق حتى وصلت اخيرا الى مكان عند اسفل جبل

داتشنغ حيث كانت طلقات البنادق تطرق الآذان . وبينما انا سائر الى الامام اذ جاءت من الجهة المقابلة امرأة عجوز تحمل سلة وقالت لى عن طيب قلب :

– لا تسر اكثر من ذلك ، فالقتال يدور هناك !

شكرتها على توضيحها لى ذلك المكان الذى كنت اقصده . وكان جنود الكومينتانغ يتراجعون باتجاهى فى فزع ورعب . فتسلقت منعطفا الى الجبل ، واختبأت فى كهف هناك .

مكثت فى الكهف وقتا غير طويل حتى سمعت ضجة واصوات رجال وسيارات . غادرت الكهف وتسلقت نحوقمة الجبل ، حيث رأيت جنود الكومينتانغ فى الحقول والطرق . لقد كانوا يتراجعون الى هنا ، واخذوا يحفرون الخنادق للدفاع . واحصيت اكثر من ثلاثين منهم يتسلقون الجبل الذى بقيت فيه . واصبح من المستحيل ان اعود الى الكهف الآن ، فتسلقت الى الاعلى ، وتسترت بحفرة وجدتها فى قمة الجبل . وعلى بعد مئة قدم من موقعى نصب جنود الكومينتانغ ثلاثة رشاشات ، احدها تحتى مباشرة . ورسمت خطة فى ذهنى – اذا صعد اى من جنود الكومينتانغ الى الاعلى ووجدنى فسوف اقاتله ، وآخر ما الجأ اليه ان اجره لنرمى بأنفسنا من على قمة الجبل !

كنت اسمع اصوات نار مكثفة من على البعد . كم تمنيت ان اكون هناك لاحارب جنبا الى جنب مع جيش التحرير ! وبعد وقت غير طويل ، جاءت اصوات الطلقات من قريب . كانت الرصاصات تتطاير فوق رأسى ويصطدم بعضها بالصخور . وكانت الشمس قد غابت فى الافق ، فصار فى وسعى ان اشاهد وميض نيران البنادق فى الظلام .

ان جيشنا لا بد ان يكون على مقربة من هنا !

" القتال ! القتال ! " جاء الصياح من جهة الشمال . كان العدو فى اسفل الجبل قد انهزم شر هزيمة . غير ان الرشاشات الثلاثة كانت ما زالت ترسل نيرانها بصورة جنونية . فتسللت من الحفرة والتقطت قطعا كبيرة من الصخور ، القيتها على ذلك الرشاش الذى كان منصوبا تحتى مباشرة ، وعلى الرشاشين الاخرين ايضا ، فاذا بها قد صمتت كلها . اما الاعداء الذين كانوا يطلقون الرشاشات فقد فروا على اعقابهم هاربين فزعين ، لا يعرفون ما حدث .

لقد اسكتت الرشاشات . وعندها رأيت عددا كبيرا من رجال جيش التحرير يقتحمون صفوف العدو وحرابهم مثبتة على البنادق . فهرعت الى احد الرشاشات التى تركها العدو ، واردت ان اندفع به الى وسط صفوفه ايضا ، غير اننى لم اعرف كيف استخدم السلاح . حينئذ تسلق رجال جيش التحرير بكامل قواهم الى اعلى الجبل وسألنى واحد منهم :

— هل انت الذى

اسكت رشاشات العدو ؟

ــ نعم .

ثم سلمت اليه الرشاش واضفت :

ــ ها هو واحد منها .

اخذها وشد على يدى بحرارة قائلا :

ــ من اين جئت ؟

ــ من جيانغشى ، لابحث عن جيش التحرير .

صعد اثنان آخران من رجال جيش التحرير الى الجبل . فأبلغ الجندى الذى كان يتحدث معى ، الرجل الاكبر سنا منهما ــ وقد عرفت فيما بعد انه كان المرشد السياسى للكتيبة ــ بأننى انا الذى ساعد على اسكات رشاشات العدو ، واننى اتيت من جيانغشى لابحث عن جيش التحرير .

" من جيانغشى ؟ " تقدم المرشد السياسى نحوى وتقرانى عن قرب . وعندها فقط لاحظت النجمة الحمراء على قبعاتهم ! هذا هو الجيش الذى كنت اشتاق اليه كل يوم وكل ساعة ! امسكت بيدى المرشد السياسى وقلت فى انفعال :

ــ قطعت هذه المسافة كلها من جيانغشى لابحث عنكم . لقد انضم ابى للجيش الاحمر واشترك فى المسيرة الكبرى عام ١٩٣٤ . . .

قال المرشد السياسى بحرارة :

ــ انت من اعزائنا ! ولا شك ان رحلتك كانت طويلة وصعبة للغاية .

ــ نعم ، لقد سرت وسبحت لكى اصل الى هنا . . .

وفى الحقيقة كنت لا اعرف كم من الوقت استغرقت فى الطريق وكم من الصعاب قاسيت .

نظر المرشد السياسى الى الرشاش وربت على كتفى يمدحنى :

ــ انك شجاع جدا ! ما اسمك ؟

ــ بان تشن شان .

ــ حسنا ، يا رفيق بان تشن شان .

كانت هذه هى المرة الاولى التى نادانى فيها الناس بـ " رفيق " ، فغمر الدفء قلبى لسماعها ! ثم التفت المرشد الى من بجواره وقال :

ــ يا وانغ الصغير ، خذ الرفيق بان الى مركز قيادة الكتيبة كى يستريح .

قلت :

ــ كلا ! لا اريد الراحة . اعطنى بندقية لاقاتل مع الرفاق للقضاء على العدو .

فنصحنى المرشد السياسى :

ــ من الافضل ان تأخذ قسطا من الراحة . هناك كثير من المعارك تنتظرك . وبعد انتهاء هذه المعركة ، سنتحدث باسهاب وتفصيل .

ثم ابتعد بسرعة .

" هيا ، لنذهب الى مركز قيادة الكتيبة . " حثنى وانغ الصغير بحماسة اخوية .

فى الصباح التالى انتهت المعركة ، وكان الرفاق مشغولين بتصنيف ونقل الغنائم . فتبعتهم من مكان لآخر باذلا جهدى لمساعدتهم . وكنت سعيدا جدا لمشاركتى فرحهم بالانتصار !

جاء مرشدنا السياسى الى مركز القيادة وقال لى :

ــ يا رفيق بان تشن شان ، ان قائد فرقتنا يود مقابلتك .

" قائد الفرقة يريد مقابلتى؟ " اخذت بسرعة سترة امى ونجمة ابى الحمراء من الصرة .

ــ هيا ، سأرافقك .

وبينما كنا نسير عبر القرية ، اخبرنى المرشد السياسى انه تحدث عنى فى الفوج ، ثم ابلغ الفوج امرى الى قائد الفرقة . والآن اراد قائد الفرقة مقابلتى ! ولم يمض وقت طويل حتى اقتادنى المرشد السياسى الى فناء واسع ، يملأ رجال جيش التحرير كل الغرف فيه ، وكلهم مشغولون. دخلنا الى غرفة شمالية . وحيا المرشد السياسى الرفيق القيادى الذى كان يضع بقلم الرصاص بعض العلامات على خريطة ، وقال له :

ــ يا قائد الفرقة ، ها قد حضر الرفيق بان تشن شان .

ثم التفت نحوى واضاف :

ــ هذا هو قائد فرقتنا .

انحنيت احتراما .

" اجلس ، تفضل . " قال قائد الفرقة . ثم وضع قلم الرصاص وصب لى كوبا من الماء .

انصرف المرشد السياسى بعد ان حيا القائد .

سألنى قائد الفرقة باهتمام :

ــ اين ديارك يا رفيق بان الصغير ؟

ــ فى قرية ليوشى بمقاطعة جيانغشى .

اومأ قائد الفرقة برأسه وقال :

ـ حسنا ، سمعت انك حضرت لتبحث عن والدك ؟

ـ نعم . لقد اشترك والدى فى المسيرة الكبرى سنة ١٩٣٤ . وكنت ابحث عنه طوال هذه السنوات ، الا اننى لم اعثر عليه بعد . وعندما سمعت ان القتال يدور هنا ، جئت الى هذا المكان .

ـ خضت المعركة حالما وصلت هنا ـ انت ولد شجاع !

اثنى على قائد الفرقة بذلك ، ثم اضاف :

ـ كم عدد افراد اسرتك ؟

" اسرتى . . . " واخذتنى الغصة ، " كانت هناك امى عندما غادرنا ابى . وفيما بعد ضحت امى بحياتها . " ونشرت السترة واضفت قائلا :

ـ هذه هى السترة التى خلفتها لى امى وهذه هى النجمة الحمراء التى

قدمها لى ابى واوصانى بحفظها .

اخذ قائد الفرقة هذين الكنزين ونظر اليهما بدقة كأنما كانا ملكا له ايضا . فوضع السترة على الطاولة ، ثم قال وهو يمسك النجمة الحمراء فى يده :

— نعم ، هذه هى النجمة الحمراء التى كنا نلبسها فى ذلك الوقت . وما زال اعزاؤنا يحفظونها ويواصلون النضال .

ثم سار الى النافذة التى تواجه الجنوب ، وفتحها ونظر خارجها . وعندما استدار كانت عيناه تلمعان .

— يا قائد الفرقة ، هل انت . . . ؟

— ان اسم عائلتى تشونغ ، ودیاری فى هونان . وكنت فى الجيش الاحمر ايضا اثناء المسيرة الكبرى سنة ١٩٣٤ .

وضع القائد النجمة الحمراء على السترة واستطرد يقول :

— اننى فرح جدا برؤيتك . اننى اشعر بالفخر ازاء الجيش الاحمر الذى قام بالمسيرة الكبرى ، وبالفخر ازاء افراد اسرهم . قال الرئيس ماو : **طالما كان هناك نضال ، فلا بد من التضحيات** . كان عدد جيشنا الاحمر مئات الآلاف من الرجال وكلهم تركوا عائلاتهم فى قراهم وديارهم . وقد قدم افراد اسرهم التضحيات للثورة . لكن تضحياتهم لم تذهب سدى . ألا ترى نصف البلاد قد تم تحريره الآن ؟

كان صوت القائد مليئا بالفخر ، وهو يواصل حديثه :

— لا بد ان نحرر البلاد كلها ! استمع لما يعلمنا اياه الرئيس ماو : **ان الشعب الصينى يعانى الآن من المصائب والمحن ، ومن واجبنا ان ننقذه ، وعليه ينبغى ان نضاعف الجهود فى النضال .**

تأثرت تأثرا بالغا ، وادركت ان عددا كبيرا من الناس ما زالوا يئنون تحت نير الظلم والاضطهاد ، ويعيشون حياة بائسة كالتى كنت اعيشها قبل قليل " . . . **ومن واجبنا ان ننقذه ، وعليه ينبغى ان نضاعف الجهود فى النضال .** " كم كان مؤثرا بى تعليم الرئيس ماو هذا ! فقلت :

– ايها القائد ، اعطنى بندقية ، اريد ان اقاتل الحرس الابيض !

– حسنا ! يجب ان تكون مقاتلا ، وان تحارب بالسلاح .

ثم اتجه نحو الهاتف : " اريد الكتيبة الاولى . . . هالو ! هل انت المرشد السياسى لى ؟ احضر وخذ الرفيق بان تشن شان الى كتيبتك وجنده فى احدى سراياك . "

وبعد ان وضع السماعة ، استدار وقال لى :

– يا رفيق بان تشن شان ، انت واحد من ابناء الجيش الاحمر ، وعليك ان تفعل ما فى وسعك لتصبح مقاتلا جيدا . سنحاول ان نعرف اين والدك واين الرفيق ياو هاى تشيوان ايضا .

لم استطع ان اجد كلمات تعبر عن فرحى . فقد حل اخيرا ذلك اليوم الذى كنت اترقبه ليلا ونهارا ! لبست زى الجيش ، وحملت بندقية على كتفى ، وكانت على قبعتى نجمة حمراء ساطعة . كم شعرت بفخر وسرور ! ومن الآن فصاعدا ، اصبحت مقاتلا ثوريا مسلحا ، وسوف اساهم فى العمليات مع الرفاق الآخرين .

ايام الحرب انطوت بسرعة . . . وكانت الحياة متوترة مليئة بالاحداث. ومر بى عامان من القتال فى جيش التحرير كلمح البصر . وشققنا طريقنا عبر نهر اليانغتسى . وفى قوة الصاعقة ازاح جيشنا بقايا قوات

الكومينتانغ كلها .

نشأت وترعرعت فى ميدان القتال بفضل تثقيف ورعاية قادة الجيش والرفاق . وقد أقسمت اليمين امام علم الحزب ، واصبحت عضوا فى الحزب الشيوعى الصينى المجيد . وعندما تقدمت وحدتنا الى جيانغشى ، كنت قائدا لصف استكشاف .

بعد تحرير المحافظات القريبة من قريتى ، عسكرت فرقتنا قرب احدى المدن . وذات يوم ارسل القائد تشونغ فى طلبى ، وقال لى :

ــ يا رفيق بان تشن شان ، كنا مشغولين بالقتال ولم نستطع ان نجد خبرا عن والدك . والآن عدنا مقاتلين الى موطنك ، وقد تحررت قريتك ، فاذهب والق نظرة عليها .

اجبته :

ــ ولكنى اود ان اذهب جنوبا مع وحدتنا حتى نحرر الصين كلها .

غير انه اصر قائلا :

ــ عد الى موطنك والق نظرة عليه . ستبقى وحدتنا فترة لاخذ الراحة وللقيام باعادة التنظيم والتدريب هنا . عد ، وحاول ان تعرف ما اذا كانت هناك اخبار عن والدك .

ــ لا اريد ان تفوتنى عملية واحدة بسبب غيابى .

ــ ان حالتك هذه حالة استثنائية . انا والمفوض السياسى وكوادر سريتك كلنا نوافق على ذهابك .

اديت التحية لقائد الفرقة متأثرا ، وعبرت عن عظيم شكرى لعناية الحزب ، ووعدت :

ــ سأعود الى قريتى لالقى نظرة عليها ، ولكنى سأرجع فورا .

١٠

مضت خمس عشرة سنة منذ ان غادرنا والدى الى المسيرة الكبرى فى سنة ١٩٣٤ ، فقد كبرت وبلغت الثانية والعشرين من عمرى واصبحت مقاتلا فى جيش التحرير . وخلال هذه الخمس عشرة سنة التى نجوت فيها من قبضة العدو مرارا وتكرارا مررت بالمخاطر والشدائد ، مما مكننى من مجابهة العواصف العاتية والنكبات الكثيرة .

ان الحزب والرئيس ماو يبعثان فىّ القوة النضالية ، والجماهير الثورية تربينى . ولولا اهتمام الحزب ورعايته ، واهتمام العم سونغ والخال ياو ، لما بات ممكنا ان اعيش حتى هذا اليوم الذى كنت اشتاق الى حلوله خلال هذه السنوات كلها . والآن ، وانا فى اجازتى لزيارة مسقط رأسى ، فلا بد ان اتوقف عند قرية ياوتشى اولا لأزور الخال ياو وعائلته .

كانت الشمس تنحدر نحو المغيب وقد امست الجبال جميلة رائعة ترتدى لونا بنفسجيا بفعل شفق الشمس . وكانت قرية ياوتشى تبدو اجمل بكثير مما كانت عليه وقت تركتها . لقد جذبت انتباه القرويين وانا ارتدى زى جيش التحرير ، وعندما تعرفوا على التفوا حولى يحيوننى . وركض عدد من الاطفال الى بيت الخال ياو لابلاغه الخبر وهم يصرخون :

ـ تشن شان انضم الى جيش التحرير وقد عاد الآن !

قابلت خالى ياو وخالتى وهما يخرجان من البيت لاستقبالى . ولما اديت لهما التحية العسكرية بدا الخال وكأنه لا يصدق عينيه ، الا انه

لم يلبث ان هتف من الفرح :

– آه انت تشن شان ! انك الآن مقاتل فى جيش التحرير !

اطبق بيديه على راحتى وامسكهما بقوة . اما الخالة فقد اخذ منها الفرح كل مأخذ . سألنى الخال :

– لماذا لم تكتب الينا ؟

اجبته :

– كنا مشغولين فى غمرة القتال ، كما كنت اخشى على عدم وصول رسالتى اليكم .

– هل شاهدت والدك ؟

هززت رأسى :

– كلا . هل كتب اليكم الاخ هاى تشيوان ؟

اجابت الخالة :

– نعم ، لقد فعل ! وذهبت شياو هونغ لزيارته .

شعرت بسرور حين سمعت هذا النبأ . قال الخال :

– لندخل الى البيت ونتحدث .

ودعت الفلاحين حولى ودخلت مع الخال الى الغرفة ، بينما ذهبت الخالة تجهز طعاما .

وبعد انتهائنا من العشاء تحدثنا حتى منتصف الليل ، فقد اخبرتهما كيف سرت على هدى صوت الطلقات حتى وجدت جيش التحرير وساهمت فى القتال ، وكيف حاول قادة الجيش ان يتقصوا اخبار والدى والاخ هاى تشيوان من اجلى . واخيرا سألتنى الخالة :

– هل تستطيع ان تبقى معنا فترة اطول من الوقت ؟

ـ لا استطيع . ان القتال ما زال يدور . ورجعيو الكومينتانغ لم يتم القضاء عليهم تماما بعد . غدا اذهب الى قرية ليوشى ثم اعود الى وحدتى العسكرية .

قال الخال :

ـ صدقت ، لا يجوز ان تغيب عن القتال .

بعد الافطار فى اليوم التالى ، صاحبنى الخال والخالة الى خارج القرية حيث واصلت سيرى مسرعا الى قرية ليوشى .

وفى الطريق المؤدى اليها مررت بحاضرة المحافظة فذهبت الى حانوت الارز حيث كنت اعمل تحت التمرين لزيارة ليو تشينغ لاى . وما ان تقابلنا حتى حضننى ورفعنى من الفرح ، ثم قال :

ـ اذن هاأنت الآن احد رجال جيش التحرير ! اخبرنى كيف هربت فى تلك المرة ؟ لتدخل الى غرفتى ، حدثنى عن كل شئ !

سألته عن السر فى بقائه فى ذلك الحانوت بعد التحرير ، فأجابنى :

ـ لم ارد ان ابقى هنا الا لأن مسؤولى اتحاد الصناعة والتجارة والنقابة طلبوا منى ذلك ، اذ ان هنا نضالات سأساهم فيها فيما بعد .

ـ صحيح . لا بد ان تكون هنا نضالات . ان سادة الماضى هؤلاء مصاصو الدماء ، فهل ستتحسن اخلاقهم ؟ ما زالت تنتظرنا نضالات حادة فى المستقبل !

تحدثنا حول امور كثيرة حتى حان وقت الغداء ، فأخذنى ليو تشينغ لاى الى مطعم صغير لنتناول الطعام ، وبعد ذلك صاحبنى حتى الشارع الرئيسى ، وعند الفراق صافحته بشدة وقلت :

ـ لا تنس كيف عانينا نحن الفقراء فى الماضى من الاضطهاد

والاستغلال ، وكيف ضامنا هؤلاء السادة ! لا بد ان نشن نضالا صارما ضدهم .

— لن انسى ذلك ابدا .

وهكذا افترقنا . وعندما استدرت والقيت نظرة اخرى عليه ، على هذا الصبى المتمرن الفقير فى الماضى ، تأكدت انه سيناضل بشجاعة ضد المضطهدين الذين لم يرضوا بهزيمتهم .

سرت نحو قرية ليوشى ، ووصلت مسقط رأسى عند الغروب .

يا قرية ليوشى العزيزة ، لقد تركتك منذ خمس عشرة سنة ! لقد اشتد خفقان قلبى كلما اقتربت منها ، وبدافع غريزى ابطأت خطواتى .

ذهبت اولا الى طرف القرية الشرقى ، الى الشجرة الكبيرة حيث استشهدت امى . كان الظلام قد حل ، الا انه خيل الى اننى رأيت امى تنادينى : دونغ تسى ! دونغ تسى !

— ماما ، لقد عاد ابنك !

وقفت تحت الشجرة لفترة ليست قصيرة ، والحقد يحز قلبى ، كنت فى شوق شديد لتصفية الحساب القديم دفعة واحدة مع هو هان سان . نظرت حولى فلاحظت ان فى القرية اناسا قليلين فتعجبت للهدوء الذى كان يسودها فى هذا المساء .

كان الكوخ الذى كنت اسكنه مضيئا فى الداخل ، وكان الباب مروربا . فدخلت والقيت نظرة حولى ولم اجد احدا فيه . آه ، لم تكن به غير آثار قليلة منذ ان غادرته قبل خمس عشرة سنة . ولما استدرت لاغادره ظهر امامى شاب ، وسألنى :

ـ عمن تبحث يا رفيق ؟

ـ كنت اسكن فى هذه القرية ، واسمى بان تشن شان .

تقدم نحوى يمسك بذراعى وقال مسرورا :

ـ انت دونغ تسى ! اننى تشون يا تسى !

شددت على يده بحرارة وقلت متعجبا :

ـ لقد تغيرت ملامحنا معا !

ـ هذا شئ طبيعى . اذا تقابلنا فى اى مكان آخر يستحيل ان يتعرف احدنا على الآخر . اين كنت طوال هذه الاعوام ؟ ومتى انخرطت فى الجيش ؟

ـ هذه قصة طويلة تستغرق وقتا طويلا . اخبرنى اولا ، هل قبضتم

على هو هان سان ؟

ـ لم نقبض عليه بعد . انه ثعلب عجوز مكار . حالما جاء جيش التحرير هرب هو وابنه الى الجبل الخلفى ، ولقد فتشنا عنه عدة مرات ولكن لا جدوى .

قلت بسرعة :

ـ يجب الا نعطيه فرصة للهروب .

قال تشون يا تسى بثقة :

ـ ابدا ! لقد وصلت احدى وحدات جيش التحرير هذا المساء لمساعدتنا على القبض عليه ، وخرج اهالى القرية يضربون حصارا محكما على جميع الممرات فى الجبل ، فلن يهرب مرة ثانية !

اذن فهذا هو السبب فى ان الاهالى بالقرية كانوا قليلين !

بينما كنا نتحدث فوجئنا بصوت طلقة من جهة الجبل الخلفى فقلت :

ـ اننى ذاهب الى هناك .

قال تشون يا تسى :

ـ خذ سيفى العريض !

بعد ان اخذته اسرعت الى الجبل الخلفى .

كان الظلام قد غطى الدنيا تغطية تامة ، الا ان المشاعل فى كل مكان حولت الجبل الى مكان مضىء . وعندما كنت اهم بدخول وادى الجبل الخلفى سمعت صوتا متحديا جاء من وراء صخرة ضخمة :

ـ من يسير هناك ؟

ـ بان تشن شان .

– من انت ؟

لم يكن هذا الصوت غريبا على سمعى ، وبدا كأنه صوت العم سونغ فقلت :

– انا دونغ تسى !

اجابنى :

– من ؟ أحقا انت دونغ تسى ؟

اخذ العم سونغ يدى قائلا :

– اذن فأنت على قيد الحياة وتتمتع بصحة جيدة يا بنى ! واصبحت جنديا فى جيش التحرير !

سألته :

– متى خرجت من السجن يا عمى ؟

– قضيت عدة شهور فيه . وفى ذلك الخريف هجم افراد فرقة العصابات بقيادة الامين وو على السجن واطلقوا سراحنا . ومنذ ذلك الحين جعلت اقاتل معهم .

– هل جاء الامين وو الى هنا ؟

– لقد ذهب الى عاصمة المقاطعة وسيعود غدا .

رنت طلقة اخرى من مكان غير بعيد ، وقال العم سونغ :

– اختبئ وراء هذه الصخرة .

فاختبأنا معا .

كانت هناك طلقة اخرى ثم ظهر شبح انسان . سأل العم سونغ :

– من هناك ؟

لم يرد الشبح جوابا ، بل تسلل الى حرش من اشجار الخيزران .

فجريت وراءه ، وكان العم سونغ وبعض شبان القرية يتبعوننى عن قرب . فتشنا الحرش الا ان الشبح قد اختفى . فجأة لاحظت على ضوء مصباح جيب للعم سونغ ان بعض الاعشاب موطوء ، ووجدت آثار اقدام تقود الى حائط مهدم . عندما اقتربت منه وجدت ان هناك دارا ، والقيت الى فنائها حجرا لم يثر اية حركة ، فتسلقت الحائط ، وفى تلك اللحظة رأيت ذلك الشبح يخرج من جهة الغرب ، فصحت :

— قف مكانك !

الا ان الشبح اختفى مرة ثانية .

عندما قفزت عن الحائط مرت رصاصة قرب اذنى ، ومن شرارتها ادركت ان الرجل المسلح كان قريبا منى جدا ، فصحت :

— الى اين انت هارب ؟

ثم هجمت عليه بالسيف . ولم تصبه هذه الضربة ، ولكن رصاصة اخرى مرت قرب ذراعى . فجأة اضاء مصباح الجيب وجه خصمى ، فتراجع مذعورا ، فطرت نحوه ضاربا يده التى تحمل المسدس ، فاطلق صرخة سقط معها مسدسه من يده .

دست باحدى قدمى على المسدس والقيت نظرة على الشخص على ضوء مصباح الجيب . كان متخفيا فى ملابس فلاح وعلى رأسه قبعة صوفية ممزقة . امره العم سونغ :

— ارفع رأسك !

رفض الرجل ذلك . فاقتربت منه ولكن قبل ان أتبينه ، هجم على محاولا اخذ السيف من يدى . فجررت السيف بسرعة من قبضته . اسقطت قبعته من على رأسه ، فرفع رأسه ورأيت وجهه ، لقد كان

هو هان سان !

اشتعل فى قلبى لهيب الحقد العميق عندما شاهدت عدوى القديم ، وهدرت فى وجهه :

– افتح عينيك يا هو هان سان ! وانظر من انا ؟

نظر الى بمؤخرة عينيه ، وارتجف ، ثم تداعى على الارض ككومة رخوة من الطين .

نادى احد الناس :

– ابن هو هان سان قد قبض عليه ايضا !

تجمع حشد من الناس حول هو هان سان المتداعى وضوء مشاعلهم قد حول الليل الى نهار . اخذت هو هان سان من الارض وقلت له فى صوت جهورى حازم :

– انك مدين للشعب بالدم ، والشعب سوف يحاكمك !

ابهج القبض على هو هان سان قلوب الناس . واستجابت السلطات العليا فورا لرغبتهم فى اجراء محاكمة علنية .

فى يوم المحاكمة العلنية بنينا منصة من التراب فى ظل الشجرة التى أحرق هو هان سان امى تحتها . وهنا سوف يحاكم الشعب ذلك الجزار الذى قتل الكثير من المناضلين الثوريين .

قبل ان تبدأ المحاكمة العلنية ، اشار العم سونغ بيده الى مدخل القرية حيث كانت مجموعة من الناس فى الطريق الينا وقال لى :

– هل تعرفت على واحد منهم ؟

كان من بينهم الامين وو . هرعت نحوه فى فرح عظيم وانا اصيح :

– ايها الامين وو ! هل تعرفنى ؟

حدق بى الامين وو ثم قال فى سرور :

ــ آه اذن فأنت دونغ تسى ، لقد عدت وانت جندى فى جيش التحرير !

كان مسرورا جدا برؤيتى . وقلت له :

ــ طوال هذه السنوات ظللت اتقصى اخبارك ، ولكن لم يتحقق ذلك .

قال الامين وو :

ــ نحن بحثنا عنك ايضا فى كل مكان بعد ان هربت من حانوت الارز .

ــ لو لا الخال ياو لما كنت على قيد الحياة .

ــ ان شتلة من الثورة يمكن لها ان تتأصل وتنبت فى اى مكان ، فلا يمكن للعدو ان يقضى علينا مطلقا .

استمر يقول وهو يشير الى هو هان سان الذى كان متلويا على المنصة :

ــ انظر ! انه هو وامثاله يشبهون جراد الخريف الذى سيموت بعد ان يقفز قفزات بسيطة .

قلت :

ــ هذه هى النتيجة لجميع اعداء الشعب .

واصل الامين وو حديثه :

ــ ابلغك خبرا سارا ، لقد تسلمنا رسالة من والدك .

لم اكد اصدق اذنى فقلت :

ــ هل وجدتم والدى ، اخبرنى اين هو ؟

اخرج الامين وو رسالة من جيبه وهو يقول :

ـ انه فى مدينة جينان يشتغل كنائب قائد فرقة عسكرية .

ابى ! رجل متوسط الطول قوى البنية ذو عينين واسعتين تلمعان تحت طرف القبعة المضلعة التى تحمل نجمة حمراء ، وعلى ظهره سيف عريض مزين بالشراريب الحمراء ، وفى خصره حزام جلدى يتدلى منه مسدس يحمل عشرين طلقة . . . هذه صورة لوالدى ارتسمت على مخيلتى . انه فلاح عادى اضطره البؤس والظلم الى القيام بالثورة ، والآن اوكلت اليه مسؤولية قيادة فرقة من القوات الثورية .

اضاف الامين وو :

ـ انه يسأل عن اخبار املك واخبارك ، كما يريد ان تذهبا الى جينان لزيارته .

ـ امى !

نظرت نحو الشجرة الكبيرة : يا امى ، ليتك هنا تشاهدين هذه الاعلام الحمراء ترفرف فى قريتنا المحررة . . ترفرف عند الشجرة التى تحتها ضحيت بحياتك ! يا امى ، ليتك هنا تسمعين اناشيد النصر . . .

استمر اجتماع المحاكمة العلنية حتى الظهر ، وفى نهاية الامر حكم على هو هان سان بالاعدام ونفذ الحكم فورا .

كم كان لقاء الاصدقاء القدامى والاقارب سعيدا فى ساعة النصر ! وكم كان ما يودون سرده كثيرا ! حضر الاخ وو والعم سونغ وتشون يا تسى وغيرهم من الاهالى الى بيتى القديم ، وجلسنا نتجاذب اطراف الحديث حتى منتصف الليل .

بعد ان خرجوا من بيتى جلست تحت ضوء السراج الزيتى اناقش

نفسى : هل اذهب الى جينان لأرى والدى ؟ فتحت الصرة التى معى ، ووضعت سترة امى والنجمة الحمراء على الطاولة . وفجأة تذكرت الرصاصة التى ابقاها لى والدى ، ألا تزال تحت شجرة الرمان حيث دفنتها امى ؟

اخذت مجرفة وحفرت عند جذع الشجرة ، ووجدتها اخيرا . لقد ظلت مدفونة هنا لمدة خمس عشرة سنة ! كم كان تفكيرى ساذجا عندما كنت طفلا : كنت اظن ان والدى ذهب يومها ليحارب الحرس الابيض وسوف يعود فى اليوم التالى منتصرا . ولم ادرك حينئذ ان ذلك كان صراعا تهتز له الارض وتخوضه الطبقات المضطهدة للاطاحة بالطبقات الرجعية الحاكمة ، وان مجرى نضال كهذا لم يكن سهلا ولا قصيرا . وتذكرت وانا امسك الرصاصة بيدى ما قاله والدى : " تذكر ، عليك ان تستمر فى ابادة الحرس الابيض اذا ما ظل باقيا عندما تكبر . " لقد كبرت الآن ، الا ان رجال الحرس الابيض لم يتم القضاء عليهم

جميعا . بالطبع كنت مشتاقا الى رؤية والدى مرة اخرى ، ولكن اذا عرف هو اننى احد جنود جيش التحرير الآن فسوف لا يتردد بالتأكيد فى ان يأمرنى بالذهاب الى الجبهة . فعدت الى داخل الغرفة واخذت ورقة ، وعلى ضوء السراج كتبت الرسالة التالية الى والدى وانا اتأمل النجمة الحمراء التى تتألق على الطاولة :

والدى العزيز :

لقد تسلمت رسالتك التى وجهتها الى امى وشخصى ، الا ان امى لا تتمكن ابدا من قراءتها ، لأنها قد ضحت بحياتها من اجل قضية الثورة قبل اربعة عشر عاما . ان امى شيوعية ممتازة رغم انه لم يمض على عضويتها فى الحزب غير يومين . وستظل صورتها البطولية خالدة فى ذاكرتى الى الابد .

بعد ان غادرتنا انت لم تكف امى لحظة عن النضال ضد العدو ، واصبحت شجاعة شديدة المراس فى المعارك . وعندما عادت الى القرية لاستنهاض الجماهير ، قبض عليها وهى تحمى احد الرفاق . ولم يستطع العدو ان يحصل منها على شيء ، فعلقوها على الشجرة الكبيرة المنتصبة فى الطرف الشرقى من القرية ، واشعلوا النار تحت قدميها . . . هكذا توفيت شهيدة وبطلة .

ان الاحداث التى مرت بى اثناء طفولتى لا تزال حية ماثلة للعيان . يا ابت ، ما ان اغمضت عينى حتى رأيتك مرة أخرى . لا انسى أبدا ما قلته يوم قدمت لى الرصاصة الملطخة بدمك : قاتل الحرس الابيض البغيض عندما تكبر ! ولا انسى ابدا انك قدمت آخر حقنة من المخدر الى جريح آخر من الجيش الاحمر وانت فى امس الحاجة اليها . لقد علمتنى كيف احب رفاقنا واشقاءنا الطبقيين . لقد اكملت قراءة كتاب مدرسة لينين الابتدائية الذى اعطيتنيه يا ابى ، غير اننى لم ادرسه فى مدرسة

لينين الابتدائية ، بل فى بيت احد الثوريين – رجل عجوز كان يسكن فى كوخ من القش . والصراع الذى كنا نخوضه قد جعلنى افهم مضمونه بصورة اعمق . ولا ازال احتفظ بتلك النجمة الحمراء التى قدمتها لى يا ابى ، وتأملتها الف مرة ومرة ! وفى كل مرة خيل الى انك بجانبى . وهى معى عندما سرت على هدى نجمة القطب فى الليل حتى يانآن ، وهى معى عندما عبرت نهر اليانغتسى الهائج بحثا عن جيش التحرير . لقد حملت هذه النجمة الحمراء خمسة عشر عاما . انها ملأتنى بالثقة والامل والشجاعة ، وحثتنى على ان اهتدى بهديك وان اناضل واثابر على النضال . وهاأنذا اعيد اليك هذه النجمة الحمراء ، حتى تذكرك بى هذه المرة . مضت خمسة عشر عاما ! الا ان النجمة الحمراء ما زالت ناصعة لامعة كما كانت .

بعد ان توفيت امى بقيت مع الاخ وو ورجال فرقة العصابات فترة من الوقت . وبعد ذلك اخذنى العم سونغ ثم الخال ياو . وطوال هذه السنوات كانت الجماهير هى التى تشرف على تربيتى .

انجبنى والداى ، وربانى الشعب ، وقادنى الحزب الى الامام . لقد اقسمت اليمين تحت العلم الاحمر واصبحت عضوا من اعضاء الحزب الشيوعى الصينى . سأقاتل من اجل المضطهدين والمستغلين لتحطيم اغلال العالم القديم . سأبذل اقصى جهودى حتى اكون شيوعيا حقيقيا ممتازا .

قالت امى ذات مرة : " ان الرئيس ماو هو احسن قائد لنا . " هذه الجملة قالتها عندما علمت ان القيادة قد آلت الى الرئيس ماو فى مؤتمر تسونيى فى سنة ١٩٣٥ . وكم كانت كلمتها صحيحة ! ان انتصاراتنا العظيمة اليوم تعزى كلها الى قيادة الرئيس ماو . واذا قابلت الرئيس ماو يا ابى ارجوك ان تنقل اليه حب امى وحبى البروليتارى اللامحدود !

لقد مضى عامان على اشتراكى فى جيش التحرير . تريدنى انت ان اذهب الى جينان لمقابلتك ، ولكننى لا اريد ان افعل ذلك الآن ، لاننى اود العودة الى الجبهة مباشرة للقتال . وعندما يتم تحرير البلاد كلها سأذهب لمقابلتك . واعتقد ان ذلك اليوم ليس ببعيد !

تركت لى امى سترة ، ظللت احتفظ بها خلال هذه الخمسة عشر عاما . وها انا ارسلها اليك ايضا ، وهى ستذكرك بأمى التى ظلت مناضلة جسورة الى يوم استشهادها .

طلع الفجر الآن ، وسأعود الى وحدتى العسكرية فورا ، سأكتب اليك ثانية من هناك .

مع تحياتى الثورية

ابنك : تشن شان (دونغ تسى)

اطفأت السراج الزيتى وطويت رسالتى ووضعتها فى داخل الظرف ، ثم اخرجت ابرة وخيطا لاحيك سترة امى والنجمة الحمراء فى صرة صغيرة . وفى ذلك الوقت ظهر الامين وو والعم سونغ عند الباب . قلت :

ـ لا اذهب الى جينان الآن .

وعندما سألنى العم سونغ عن السبب اوضحت قائلا :

ـ اود ان الحق بوحدتى ، وعندما يتم تحرير البلاد كلها . . .

اكمل الامين وو الجملة لى :

ـ تذهب لمقابلة والدك !

اومأت برأسى موافقا ، وطلبت منه ان يبعث بالرسالة والطرد الى جينان ، فقبل الطلب متأثرا للغاية .

بعد الافطار ودعت اهلى ومسقط رأسى المحبوب ، وبدأت سيرى مرة اخرى لاساهم فى معارك جديدة .

闪闪的红星
李心田著　　王维新插图
*
外文出版社出版　（北京）
1976年（34开）第一版
编号：（阿）10050—862
00080
10—A—1325P